



محمد محمد مستجاب

# البيانو الطفير

رواية

# البيانو الصغير

**البيانو الصغير**  
**محمد محمد مستجاب**  
**رواية**

اجعلوا أحلامكم كبيرة.

## الفصل الأول

### الرجل العجيب

- سيتم القبض على أمي بعد شهر.

- ثلاثون يومًا فقط تفصل أمي عن السجن وأسرتنا عن الضياع.

- الوقت هو الذي يُقرر ذلك.

أتذكر حديث الأستاذ أحمد مُدرس مادة التاريخ بالمدرسة، وهو يُخبرنا بعبور قواتنا المسلحة لقناة السويس خلال ستّ ساعات أثناء حرب أكتوبر، وأن أشياء عظيمة تحدث في لحظات، وأن الهزائم القاسية بدايات لانتصاراتٍ كبرى.

لا أعرف لماذا تذكرت حديث الأستاذ أحمد الآن وأنا جالس على سطح البيت بجوار غية الحمام، ليس لي رغبة في إطلاقه كما أفعل كل يوم، أنظر للسماء الخالية، ثم للحمام المحبوس في الغية، أشعر بأنني عاجز ومحبوس مثله، أفكر في حلّ للكارثة التي حلّت بأسرتي.

جلبة كبيرة جاءت من الحارة أخرجتني من حيرتي، حاولتُ تجاهلها، لكنها استمرت وزادت، فنهضتُ لأستطلع سرّها.

في وسط الحارة، التفت مجموعة كبيرة من الأطفال حول رجل يُخرج النار من فمه، الرجل لا يكفُّ عن وضع الجاز في فمه من زجاجة صغيرة بيده اليسرى وباليد اليمنى يُقرب شعلة النار من فمه نافخًا فيها، فتخرج النار من فمه كالتنين في فيلم سينمائي، بجواره فتاة تُمسك (مزهري) تقوم بهزه هزاتٍ متتابعة، وهي تصيح لجمع الناس:

- «قرب.. قرب».

الأطفال يزدادون حول الرجل في الحارة، وفي الشرفات والنوافذ وقف بعض الجمهور يُشاهدون ما يفعله بعيونٍ متسعة متعجبة.

أنهى الرجل فقرته الأولى بإطفاء شعلة النار في فمه، وسط صيحات الأطفال ونظرات الدهشة والإعجاب من الكبار.

بدأ الرجل فقرته الثانية، بسحب قطعة خشبية مملئة بالمسامير، ووضعها على الأرض والفتاة تصيح في حماس:

- «الفقرة الخطيرة لأشجع رجل في العالم.. جسده حديد.. كله حديد»

نام الرجل بظهره على المسامير، وصاحت الفتاة طالبةً أن يقف على صدره أي شخص لإظهار قوّته. ظهر التردّد على وجوه الجميع خشية الاقتراب من الرجل، ضحكت الفتاة وزادت من إيقاع هزّ المزهري بيديها، ثم قفزت ووقفت على صدره، وبدأت في القفز عليه عدة مرات وكأنها تتقاذف على قطعة إسفنج.

ظل الرجل نائمًا، وكأنه لا يحدث له شيء.

هبطت الفتاة وبدأت في النداء المميز لحث الجمهور على الاقتراب لهذه التجربة المثيرة، اقترب طفل ووقف على صدر الرجل، صاح الجميع في دهشة، وازداد حماس التصفيق في الحارة.

ما فعله الطفل شجّع الكثير من الأطفال لصعود جسد الرجل والوقوف على صدره، لم يتألم الرجل ولم يظهر عليه إلا أنه يؤدي عمله.

أنهى الرجل فقرته الثانية ناهضًا بقفزة سريعة ورفع ذراعيه مستقبلاً تحية الجمهور الحارة، بينما الفتاة بدأت في هز المزهروهي تقترب من الجمهور في الحارة، وتطل في الشرفات لعلّ أحدًا يلقي لها أي نقود.

قلة من الجمهور تجاوزت مع الفتاة، وألقوا لها بعض النقود، وكثيرون انفضوا من حولها دون دفع أي نقود.

من وسط الحارة انطلقت صفارة شلتنا المميزة، وجدت صديقي «حسام» يُشير لي ويُخبرني بذهابه لمنزهم لتناول طعام الغداء، ويُبهنني للاستعداد لمباراة الليلة ضد فريق منطقة «الكنيسة».

جمعت الفتاة النقود وأعطتها للرجل، نظر فيها ثم قبّلها ووضعها على عينه ورأسه شاكرًا الله، ثم أعطى للفتاة جنيهاً وطلب منها أن تذهب لشراء حلوى.

رغم السعادة التي شعرت بها، إلا أنني كنتُ في حيرةٍ مما فعله الرجل، فتذكرت مقولة أمي الدائمة:  
- «لقمة العيش ليست سهلة».

## الفصل الثاني

### الطيب.. الغول

عدتُ حزيناُ لجلستي على السطح بجوار غيَّة الحمام، أفكر في حلٍّ للكارثة التي حلَّت بأسرتي بسبب زيارة المعلم «أبو أيمن» لنا.

يملك «أبو أيمن» عمارتين على ناصية حارتنا، ومنذ فترة قصيرة استطاع شراء بيتين، هدمهما سريعاً وقام ببناء عمارة ضخمة مكانهما، وبذلك صار له ثلاثُ عمارات في الحارة.

كرهتُ تلك العمارات، لأنها تعيق حمام غيَّتي أثناء طيرانه، ولم يعد يأخذ راحته في التحليق في السماء. اشترى المعلم «أبو أيمن البيت» الذي نسكن فيه والبيت المجاور له، ويريد أن يهدمها ويقوم ببناء عمارة ضخمة مكانهما، استطاع خلال الأيام الماضية أن يُقنع بعض السكان بأخذ مبلغ من المال وترك البيت، ولم يبقَ إلا بعض العائلات الفقيرة في البيت لا تستطيع أن تُغادره لعدم وجود حلٍّ أمامهم.

نحن من تلك الأسر!

فلدينا جبل من الديون يُحاصرنا، بعد سفر والدي إلى ليبيا وانقطاع أخباره، ولم يعد لدى أسرتنا مصدر للدخل سوى عمل أُمي.

في هذا اليوم عندما طرق «أبو أيمن» باب شقتنا، اعتقدنا أنه جاء بخصوص موضوع إخلاء الشقة. رحَّبت أُمي وجدتي به، وعيونهن تتلَّفت في حيرة كبيرة من تلك الزيارة المفاجئة. طلبت أُمي من أختي «نورهان» أن تصنع له كوب شاي.

ابتسم المعلم «أبو أيمن» ابتسامةً عريضة، كاشفاً عن أسنانه المصبوغة بالسواد، وهو يقول:  
- «اجعليه شربات بدلاً من الشاي».

تهلَّل وجه أُمي عندما سمعت كلمة «شربات»، وتوقعت مجيئه بخبرٍ سعيد عن أبي الغائب. لكنه أكمل كلامه، قائلاً:

- «جئتُ اليوم طالباً يد عروستنا.. أليس اسمها وفاء».

- «عروسة؟! هكذا قالت أُمي في دهشةٍ وحِدَّةٍ وبوجهٍ مُرتبكٍ وقد تلاشت الفرحه سريعاً منه. فهمت أُمي الآن سبب زيارة «أبو أيمن» المفاجئة لنا، قالت له؛ «هذا شرف لنا.. لكن ابنتي ما تزال صغيرة، وهي الآن في المدرسة.. فالسنة المقبلة ستُصبح في الثانوية العامة، وتحلم بدخول الجامعة، لتُصبح طبيبة».

اعترض المعلم «أبو أيمن» على كلمات أُمي، وهو يُخبرها بأن أي فتاة ليس لها إلا الزواج في الختام. هزت أُمي رأسها قائلةً:

- «ولن تريدها من أحفادك؟»

استدار المعلم أبو أيمن ناحية أمي في دهشةٍ وقال لها:

- «أحفادي! أنا أريدها عروسة لي»

الصدمة شلّت لسان أمي، وحجّرت عينيّ جدتي، وشعرت أنا كأن عرقلة شديدة حدثت لي أثناء لعب الكرة.

ضحك المعلم «أبو أيمن» وهو يقبض بيده على عكازه، وازداد بريق خاتمِهِ الذهبي ذي الفص الأخضر في إصبغه قائلاً:

- «ماذا قلتن؟ نقرأ الفاتحة».

حاولت أمي رسم ابتسامةٍ على وجهها القلق، وهي تنظر لصورة أبي المعلقة على الجدار وكأنها تستنجد به:

- «عندما يعود والدها الأسطى حسن.. نتحدث في هذا الموضوع»

ظهر الضيق على وجه «أبو أيمن»، فقال لأُمي بنبرة جافة: «الأسطى حسن لديه أكثر من عام ونصف لا يعلم أحدٌ عنه شيئاً.. والحياة لن تتوقف.. والحي أبقى من الميت».

جحظت عين جدّتي وترقرقت عين أمي بالدموع عندما قال كلمة «ميت»؛ فنحن لدينا أملٌ كبير أن والدي حيٌّ، رغم انقطاع أخباره تمامًا.

- «ميت! على العموم يمكن لك أن تتحدث مع رجل البيت». هكذا ردّت أمي عليه.

دُهِش أبو أيمن من كلمات أمي، وقال لها: «ومن رجل البيت الآن؟»

نظرت أمي ناحيتي، وقد اتّسعت عينها بقوة قائلة: «حمامة.. أقصد ابني محمد».

صعقتني كلماتها كما صعقت «أبو أيمن»، فنظرت ناحيتي بنظرةٍ ذات معنى: قائلة:

- «ماذا قلت بهذا الشأن يا محمد؟».

لم أكن أنظر لأبو أيمن ولا لأمي، كنتُ أنظر إلى صورة ملتصقة على باب الغرفة للاعب «محمد صلاح» وهو في حالة تحفّز، ويطل في حدةٍ ناحية المرمى، والكرة أسفل قدمه قبل أن يُحرز هدفًا قاتلاً. وكأنه يُذكرني بأن خير طريقةٍ للدفاع هي الهجوم.

شعرت حينها ما قصدته أمي، وكأنها تُخبرني بأنني في مباراة، ولم يبقَ من زمنها إلا ثوانٍ معدودة، وقد أُلقت لي الكرة، ويجب أن أحرز هدفًا بهجمة مرتدة، فهي الهجمة الأخيرة ويجب ألا تضيع.

- «لا يُوجد لدينا فتيات للزواج»، هكذا أجبت.

ما كادت الكلمات تخرج من فمي، وابتسامة انتصار ترتسم على وجوهنا نحن الثلاثة، حتى أخرج المعلم «أبو أيمن» من جيبه مجموعةً من الإيصالات قائلاً:

- «يا أستاذ محمد.. يا رجل البيت.. كل هذه الكمبيالات مهر لأختك.. والله يعلم أنني جئتُ في خير».

- «خير!» شهقت جدّتي بعفوية بتلك الكلمة.

- «أجل يا حاجة أم حسن. خير.. لقد جئت لأساعدكم لتخرجوا من تلك المشكلة». كانت هذه كلمات «أبو أيمن» وهو ينظر ناحية جدتي بحدة.

شعرت بأننا نستبدل شرًّا بشر، ويجب علينا أن نختار أهوتها، لكنه في النهاية شر.  
- «لا تُوجد لدينا فتيات للزواج. كما قال رجل البيت». هكذا قالت أُمِّي وهي تقف ناهضةً معلنةً انتهاء الحديث والمقابلة.

نظر المعلم «أبو أيمن» لعين أُمِّي مباشرةً. وكأنه يريد أن يُحاصرها كدجاجة في محله سقطت بين يديه قبل ذبحها، قائلاً: «إذن أنا مُجبر على تقديم تلك الكمبيالات للحكومة» (\*).

الحجرة تبدو خالية من الهواء وتكاد تنفجر، أصبح جوها خانقًا، رغم الشرفة ومروحة السقف التي تدور بأقصى سرعة، شعرت حينها بأن المعلم «أبو أيمن» أخذ كل هواء الغرفة في صدره. ولم أكن أستطيع احتمال الجلوس، لكنني تذكرتُ كلمة أُمِّي أنني أصبحت رجلاً، فظللتُ جالسًا صامتًا، وإن كان قلبي يحترق. نهض المعلم «أبو أيمن» غاضبًا وظله يرتمي على الجدار كوحش هائل، ويتوعدنا بالطرد والانتقام، قائلاً: «يجب أن تُسدّدوا ما عليكم الآن. وإلا فإن الحبس في انتظارك»، وكان يقصد أُمِّي، وأكمل: وأن نجهز أنفسنا لمغادرة البيت لأنه يُريد هدمه لبناء عمارته السكنية الجديدة.

صمتُ شديد حلّ علينا، شعرتُ لحظتها أن هذا الرجل الطيب الذي يُساعدنا وتقترض منه أُمِّي كثيرًا من المال لمواجهة صعوبات الحياة، قد تحوّل بجسده الضخم وطوله الفارع إلى غولٍ خرج من إحدى الحكايات ويقف الآن في وسط غرفتنا، كي يخطف أختي وفاء.

بدّد صمت الغرفة، صوت جدتي وقد امتصّت غضب المعلم «أبو أيمن»، قائلة: «العشرة لا تهون إلا على ولاد الحرام، وكل أموالك سوف تأخذها يا أبو أيمن». التفت إليها المعلم «أبو أيمن» وقال بحزم: «كيف؟».

قالت جدتي: «أعطنا بعض الوقت لندبّر أمورنا.. نحن لسنا لصوصًا.. وإذا كانت ظروفنا صعبة.. فالله قادر على إخراجنا من تلك المحنة».

ضحكة ماكرة علت وجه «أبو أيمن»، وهو ينظر لأُمِّي وجدتي، وكأنه يستعد لإحراز هدفٍ حاسمٍ في وقتٍ قاتل من عمر المباراة، وهز رأسه قائلاً:

- «من أجل العشرة فقط، سأنتظر لمدة شهر واحد فقط».

خرج المعلم «أبو أيمن» من بيتنا غاضبًا، وجلسنا جميعنا صامتين ننظر للأرض، وكأنه سحب من أفواهنا الكلام. امتدت يد أُمِّي وهي ترتعش واحتضنتني هامسةً في أذني؛ «أنت رجلنا الآن».

ابتسمت جدتي، كانت ابتسامتها كفيفة بأن تُبدد الحزن والخوف الشديدين اللذين تركهما «أبو أيمن» على وجوهنا قائلة:

- «إن شاء الله هاتفرج.. بس قولوا يا رب».

الحكومة لفظ دارج يُطلق على الشرطة في مصر.

## الفصل الثالث

### أصبحت رجلاً

عقلي مشوّش بشدة، الأفكار تتوالى بعنفٍ على رأسي وتكاد تنفجر ولا أملك أي فكرة للإنقاذ، أشعر بأن نفسي يخنق داخل رثتي، أحاول الكلام أو الصراخ فلا أستطيع، أنفجر في البكاء، بكاء صبيّ في الرابعة عشرة من عمره يفقد كل شيءٍ في حياته. تحتضني أُمي وجدتي وتأتي أُختاي وفاء ونورهان، تجلسان حولي، وتبدأن في البكاء، نبكي معاً لمدة طويلة.

أستجمع شجاعتي، أفكر أن اقتحم محلّ المعلم «أبو أيمن» وأصرخ فيه وسط عماله وأبنائه، أن يبتعد عنا، لكنني أراجع عن هذا التفكير، فلا تزال أصداء كلمة أُمي (أنني أصبحت رجلاً) في عقلي.

أتذكر هذه الكلمة جيداً قبل أن يسافر أبي، حين أخذني معه لشراء بعض الأشياء، لكنه لم يشتر شيئاً، فقط ظلّ يُحدثني عن أنه سترك بيتاً به مجموعة من النساء وأنني الرجل المسؤول عنهن، ويجب أن أقوم بحمايتهن وأن أُلبي طلباتهن، ربما حينها لم أكن أستوعب ما يقوله أبي لي، فهمتُ الآن كلام أبي.

لم يكن لي مهرّب إلا الصعود إلى سطح البيت. اختبأتُ فيه بعد مغادرة المعلم «أبو أيمن» شققتنا، أُطل للسما، أتابع طائرة تمرُّ، أشعر بحنينٍ جارف إلى أبي، قد يكون راكباً فيها، ويعود فجأة، ويُقنذنا. أُطلُّ متابعاً الطائرة إلى أن تصطدم عيني بعمارات «أبو أيمن» الضخمة والتي تحجب جزءاً كبيراً من السماء.

يُخرجني من مخبئي وحيرتي نداء وصفير أصدقائي عليّ للذهاب معهم للعب الكرة، رغم عدم رغبتني للعب، لكنني فكرتُ أنها فرصة للهرب من التفكير في تلك الأزمة، هبطتُ سريعاً دون المرور على شققتنا حتى لا أرى نظرات الحيرة والخوف على وجه أسرتي.

في وسط الحارة وقف حسام وعاطف وعصام وهاني في انتظاري وهم يتناقلون الكرة ويثيرون جلبة كبيرة، نحن الخمسة نُمثل فريقاً متكامللاً لا نفرق أبداً، في مدرسة واحدة ونسكن في حارة واحدة هي حارة «عبد الغني حسن»، حارة طويلة تشعر بأنها لا تنتهي، عاطف وحسام يسكنان في نهايتها، وأنا وعصام نسكن بالقرب من بعض في منتصفها، وهاني الطوخي يسكن في حارة أخرى.

طوال الطريق إلى أرض الملعب، كان «حسام» يتحدث عن الرجل العجيب وكيف كان يُخرج النار من فمه، ويحاول أن يقلده بأدائه التمثيلي المُحبب لي.

كنا قد وصلنا لأرض الملعب عندما انتهى «حسام» من تقليد الرجل العجيب. وقفت أُطلُّ على أرض الملعب وكأني أراه لأول مرة، الشباك العالية تُغلفه من جميع الأركان، كشافات الإضاءة، المرمى، خطوط أرضية الملعب، النجيل الأخضر، الشباك، مقاعد الجمهور، هنا أشعر بحُرّيتي، هنا أنطلق، هنا تظهر موهبتي وقدراتي، وهنا أستطيع تحقيق أهدافي.

تعلمتُ من لعب الكرة، أن هدفًا واحدًا يمكن أن يقلب الحال، أو هجمة خاطفة تجعل الجميع سعداء، لو هذا يحدث في الحياة، أن أُصيب هدفًا بسرعةٍ ويتغير الحال إلى فرحةٍ عارمة، لكن أين هذا الهدف؟ لقد مُنيتُ شباك أسرتي بالكثير من الأهداف منذ غياب أبي، وها هو المعلم «أبو أيمن» يأتي بهدفٍ قاتل في مرمانا، ولم يكتفِ بذلك، بل لديه عدة ضربات جزاء، وكل ما علينا أن نقف في محاولةٍ لصد أيٍّ منها!  
وبدأت المباراة..

المباراة قوية وساخنة، وفريق منطقة «الكنيسة» قادم للثأر من هزيمته في مباراتين الأسبوع الماضي، وأنا لا أَلعب الكرة، بل أشعر بأنني أتعارك، وأنني في معركة، حذرتني الحكم، وأعطاني إنذارًا لضربي الكرة في وجه أحد اللاعبين من فريق الكنيسة، بعد أن قام بعرقلتي من الخلف.

شعر فريقي بغضبي أثناء اللعب، وأن هذا ليس أسلوبِي، لأول مرةٍ أحصل على إنذارٍ ولأول مرةٍ لا أَلقي لهم الكرة كثيرًا، ولم أساعدهم في الدفاع كما أفعل، أريد أن أخرج ما بداخلي من غضب، وهو ما ظهر في كل كرة أتلقها أو ألعبها.

رغم خروجنا فائزين في الشوط الأول بهدفين، أحدهما سجلته والآخر ساعدتُ في تكوينه لحسام. إلا أنني لم أكن أريد إكمال المباراة، انتابني رعشة شديدة، وشعرت بخوفٍ حقيقي مما يمكن أن يفعله المعلم «أبو أيمن» لنا، لو نفذ تهديده بتقديم الكميالات للشرطة، حينها لن يكون أمام أمي إلا السجن، وأسرتي ستلقى في الشارع. وبدأت أبكي.

انتهت المباراة بفوزنا مرةً أخرى على فريق الكنيسة، بثلاثة أهدافٍ مقابل هدف واحد. كان فريقي يلعب بدوني رغم وجودي في أرض الملعب، كنتُ كتمثال يقف دون حراك.

أثناء عودتنا لاحظ «حسام» ما بي من ضيق، فطلب أن أبتسم وأفرح معهم بالفوز. رسمتُ ابتسامةً على وجهي حتى لا أضايق باقي المجموعة، فقد كانوا سعداء بالفوز وهم خارجون من الملعب.

واحتفالاً بالفوز قرر «حسام» أن نركب «توك توك» بدلا من العودة سيرًا على أقدامنا، أشار لأول توك توك قادم، جلسنا أنا وعصام وعاطف وهاني في المقعد الخلفي، وجلس حسام بجوار السائق كما يُحب، السائق طفلٌ في الثانية عشرة، يرتدي ملابس قذرة ورائحته لا تطاق، قال «حسام» له: «منذ متي لم تستحم.. ألا يُوجد في بيتكم ماء».

شعر الطفل بالإهانة، فقال في حزن: «منذ ثلاثة أيام أعمل على التوك توك.. كي أسدد ثمن جلسة الغسيل الكلوي لوالدي الراقد في المستشفى.. يجب أن أجمع كل خمسة أيام 600 جنيه».

شعرنا حينها بالضيق من حديث «حسام»، فوضع حسام يده على كتف السائق الصغير وقال له: «إنني أمزح معك.. ربنا يشفي لك والدك».

عند عودتنا للحارة، قرّر عاطف وعصام وهاني العودة لبيوتهم، وظل حسام واقفًا معي أمام البيت، ينظر لي مُحدقًا وهو يُحدثني:

- ما بك يا حمامة، هل أنت بخير؟!  
لم أتحدث، يعلم «حسام» أنني لا أحب أن أكذب عليه أو أخفي شيئاً عنه، لكنني كنت غارقاً في تحليل  
كلمات ذلك الطفل الذي يقود التوك توك، وما يفعله من أجل أسرته.  
جلس «حسام» على حجرٍ أمام البيت، وبدأ يلعب في التراب بعضاً رقيقة وهو ينظر لي متسائلاً: «أين  
ابتسامتك يا حمامة؟».  
لم أستطيع أن أبوح لحسام بما حدث في بيتنا اليوم، خشيتُ أن أنظر له وأقول: «إنني أصبحت رجلاً».

## الفصل الرابع

### أصابع أمي بعشرة جيوش

أمي العظيمة، الجميلة، النشطة، الممتلئة بالحماس والشجاعة، والمُدْرَبَة على اجتياز الأزمات والصبر على المحن، والتي تفكر كثيرًا قبل أن تخطو أي خطوة في حياتها، تُعيد ترتيب أفكارها ومعالجة الأمور بالحكمة في وقت الأزمات، ولم تعتمد على الصدفة مُطلقًا، وأي صدفة تلك التي يمكن لها أن تنقذنا.

كان أبي يعمل سبّاكًا، وهو سبّاك ماهر وذو شهرة في مهنته، ويطلبه الكثير من الناس، لكنه مثل كل عامل، أيامًا يعمل ويحصل على مالٍ كثير وأيامًا يجلس عاطلاً دون عمل. وعندما طالت فترة تعطُّله، فكَّر في السفر خارج مصر، ولم يكن يستطيع أن يحصل على عقد عملٍ في إحدى دول الخليج، فسافر إلى ليبيا.

في البداية كان يُرسل لنا رسائل ويُحدثنا في الهاتف، وتأتي بعض النقود مع أي صديقٍ له، لكنه منذ أكثر من عام ونصف، انقطعت أخباره تمامًا بعد فشل الثورة وقيام الحرب والصراعات داخل ليبيا، ورغم بحث أمي ومحاوله معرفة أي شيءٍ عنه، إلا أن كل تلك المحاولات باءت بالفشل.

ترفض أمي فكرة أن أبي مات، فهي تنتظر مجيئه كلَّ يوم هي وجدتي. لكن فور يقينها بغياب أبي، بدأت مشروعها الخاص ببيع الخبز على ناصية إحدى الحارات، واستطاعت — بمشروعها الصغير — رغم مُضايقات رجال البلدية<sup>(\*\*)</sup> لها، أن تكسب مبلغًا يوميًا من المال تستطيع به مواجهة الحياة، وخسارتها التي هي عبارة عن بعض أرغفة الخبز المحطمة أو التي لا يريد أن يشتريها أحد، تعود بها وتُأكلها نحن في البيت. كانت أمي تريد أن تخرج من أزمة غياب أبي بأي طريقةٍ وألا تُعرض أولادها لأي انكسارٍ أو للضياع. فهي ترفض بشدة أن نعمل في أي عمل، خاصة أُختي وفاء ونورهان. لكن تلك الكارثة كيف تُواجهها أمي الآن؟

عندما عدتُ للبيت وجدتُ وجه أمي شديد الشحوب، وتكاد تفقد وعيها، تُمسك في مقبض الباب خوفًا من سقوطها على الأرض، ترتعش، تسندها أُختي نورهان وتُجلسها على الكنبه وتأتي لها بكوب ماء بالسُّكر، تقول أمي: «أنا خائفة.. أين أنت يا حسن؟».

لم أرُ أمي خائفة هكذا من قبل، كانت دائمًا تنظر لأصابع يديها، وتقول: «أصابع يديَّ بعشرة جيوش». جلستُ أمي على طرف سريرها، تنظر لأصابع يديها في حيرة بعيونٍ مُطفأة، تفكر في المهلة التي منحنا إيَّها «أبو أيمن»، شهر واحد فقط، تفكر بأن هذه المهلة لن تستطيع خلالها فعل أيِّ شيءٍ، هذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها بالعجز.

كان الصمت قد خيَّم على شفاه المُجتمعين في الغرفة؛ أنا وجدتي وأمي وأُختي نورهان، بينما رءوسنا تدور فيها الأفكار كطاحونة، لدرجة تكاد أن تسمعها.

في تلك الأثناء تندفع أختي وفاء إلى الحجرة، وتقول لأمي:  
- «لا يوجد حلٌ إلا زواجي من أبو أيمن.. وأنا موافقة».

بدموع تفيض من مقلتيها تحتضنها أُمِّي، همس في أذنها قائلة: «سوف تُكملين تعليمك وتُصبحين طبيبة كما تريدن.. لن تزوّجني هذا الرجل مهما حدث».

كانت الاثنتان ترتعشان، قالت «وفاء» وهي تحتضن أُمِّي بقوة:  
- «يجب أن أضحى، سوف أتزوّجه حتى ولو كنتُ في عمر أحفاده»، لم أسمع كلام أُمِّي وهي تردُّ عليها، سمعت بكائهن فقط.

هل هذا الحل سيُرضي الجميع؛ أن يتم التضحية بشخصٍ ما لإنقاذ أسرتنا؟ ليس التضحية بل بيع أحد من أجل إنقاذ الجميع، وهل كل مشكلةٍ يجب أن نبيع شيئاً؟ وإذا كنّا لا نستطيع أن نبيع شيئاً لأننا شديدو الفقر، فهل نفعل مثلما فعل جارنا «صلاح جمعة»، والذي ذهب ذات يوم لبيع كُليته، وأخذ مبلغاً من المال، لكنه اضطرَّ بعد فترة أن يبيع شيئاً آخر من جسده، ثم ساءت حالته ومات؟  
إذا كان الموت هو النهاية، فلماذا نموت ونحن أحياء؟

ظلمتُ أنظر لأختي «وفاء» وأفكر فيها كزوجةٍ للمعلم «أبو أيمن»، لم أستطع أن أتخيل تواجدها بجواره في كوشة الفرح، ستكون كحمامةٍ رقيقة في بيت صقر ضخم، حاولتُ ألا أفكر كهذا، لكنني كنتُ غاضباً، نهضتُ هارباً مما يحدث بالدخول لغرفتي للنوم.

إذا طُلب من شخصٍ أن يدخل بغرفته مسابقةً كمزارٍ سياحي للأعب «محمد صلاح»، فلن يجدوا إلا غرفتي، الغرفة جدرانها مكسوة بملصقات لمحمد صلاح؛ صورة وهو يُسدد هدفاً مع المنتخب القومي، وصورة مع نادي «ليفربول»، وصورة وهو يحتضن ابنته الصغيرة «مكة»، وصورة وهو وسط الجماهير، وصورة وهو داخل سيارته الفيراري، وصورة وهو يحمل كأس أوروبا للأندية، وصورة وهو يرفع ذراعيه لتحية الجمهور، وصورة وهو يخلع قميصه الرياضي، وصورة وهو مُلقى على الأرض مُصاباً، وصورة وهو ينظر للخصم قبل تسديد هدف.

يعيش «محمد صلاح» معي حقاً، لا يُفارقني، أنظر لصوره بالساعات، عندما تغلق أضواء الغرفة ليلاً، أترك النافذة مفتوحةً لتلقي بعض الضوء من خارجها على عيني، أشعر بأنه يُرسل لي نظراته، أحلم بأن أصير ذات يوم كمحمد صلاح. أن أكون خليفته، أن أصير في لحظة نبض الجماهير وقلبهم الذي يحمل لهم الفرحة. تلك الليلة لم أحلم حلمي المفضل بأنني أقف في استاد القاهرة وتصيح الجماهير باسمي، حلمت بكابوس، أتذكره جيداً، كان «محمد صلاح» يقف على حافة باخرةٍ كبيرة وأمامه البحر وعلى وجهه ابتسامة جميلة، ثم نظر ناحيتي وألقى لي الكرة، قمتُ بقذفها بقوة لتسقط في مياه البحر، فتخرج الأسماك لتبتلعها، وفجأة ترتجُّ الباخرة، كعملاق يتمدّد بعد نوم طويل. يختفي «صلاح»، وأصاب بالذعر، أحاول بكفّ يدي أن أتشبّه بطوق نجاةٍ ظهر فجأة، لكنني لا أستطيع الإمساك به، أستيقظ فرعاً، وأبدأ في البكاء.

التروسيكل: (عربة ذات ثلاث عجلات يدفعها شخص).  
رجال البلدية: (رجال من الشرطة والمرافق بالحلي).

## الفصل الخامس

### نهاية الطفولة

- «أمي، استمعي لي، ما رأيك في تأجير «توك توك» للعمل عليه؟ هذه هي فكرتي، نستطيع خلال شهرٍ واحد سداد جزء من ديون المعلم «أبو أيمن».. لقد رأيت طفلاً يعمل على توك توك، يكسب في اليوم أكثر من ثلاثمائة جنيه. سوف أموت نفسي في العمل من أجل ألا تصبح أختي وفاء زوجة لأبو أيمن، أو تدخلي السجن».

كانت عيون أمي متسعةً وفي غاية الجمال وهي تسمع فكرتي. تمنيتُ أن أظل أتحادثُ كي أستمِر في النظر لهما.

- «يمكننا استئجار توك توك، اليوم بيائة جنيه، بعد خصم تكاليف البنزين والصيانة. نستطيع أن ننقذ أنفسنا يا أمي».

كان جماها يتزايد كلما زاد حماسي وحديثي عن فكرتي، في الختام، مدّت يديها واحتضنتني بقوة. قلت لها وأنا أخلع نفسي من حضنها: «أنا لا أمزح، سوف نتصر، ونخرج من تلك الأزمة.. سوف أعمل ثلاثَ ورديات في اليوم. لن أقول لزبون لا. سوف ننجو.. ننجو.. أقسم بالله إنني أستطيع فعل ذلك. فأنا رجل كما قلت لي. ماذا تقولين؟ هيا، هيا وافقي!». قالت أمي: «أحبك يا حمامة.. نستطيع يا بُني».

التقطت الكرة من أحد الأركان وخبطتها في الأرض بشدة عدة مرات ثم حضنتها بقوة وكأنني أخشى فراقها، مُعلناً لأمي أن لديّ مباراة هامة الآن، ويجب أن يفوز فيها فريقي، فهذه آخر مباراة لي معهم، سوف أودع لعب الكرة يا أمي، سوف أودع حلمي الكبير بأن أصير كـ «محمد صلاح»، فهذه المباراة يجب أن تكون مميزةً في كل شيء، يجب أن أنتصر فيها مهما حدث.

أخذت أبكي وأنا أهبط سلام البيت. لم أستطع منع نفسي، بكيتُ وأنا أحاذر أن يسمعني أحد، ظللتُ أبكي إلى أن خرجتُ من باب البيت.

كان حسام في انتظاري على ناصية الحارة، وتهلّل وجهه عندما شاهدني، لكن وجهي كان غاضباً. أخذتُ أتحادثُ مع «حسام» بأننا يجب أن نفوز في مباراة اليوم، وأن ما حدث من قبل مع هذا الفريق لن يتكرر، خشيتُ أن أخبر «حسام» بأن هذه آخر مباراة لي معهم، وخجلتُ أن أخبره بفكرة عملي على التوك توك. كان «حسام» وهو يسير يُصفرُّ من فمه صفير أغنية انطلقت من توك توك مار بجوارنا، ظلَّ يُرددها، فأثار ذلك غضبي أكثر، لكنه استمرَّ مُركباً كلمات أخرى على لحن الأغنية، وكان ينظر لي مبتسماً، كي أخرج من حالة الغضب التي أنا فيها، في النهاية ضحكت، وبادلني حسام الضحك، وظللنا نحن الاثنان نُصفر بلحن الأغنية ونضحك، وقد وضعنا عليها كلماتٍ غير كلماتها فشعرنا بكثيرٍ من البهجة، ونسيتُ ما كنت

أفكر فيه من مشكلات. وإن كنت أفكر في أن ألعب مباراةً قوية تظل عالقة بذاكرة من يُشاهدها. فالتركيز البادي على وجهي الآن يُشير إلى أنني سوف أخوض مباراة مصيرية، مباراة يجب أن ألعب فيها الثلاثين دقيقة بنفس حماس الدقيقة الأولى، ثلاثون دقيقة تفصلني عن الانتصار.

لكن أي انتصار؟

المباراة ساخنة منذ إطلاق صافرة البداية، جميل أن تُلعب فريقًا به الكثير من اللاعبين الماهرين، بذلت أقصى ما في وسعي أثناء المباراة، كنت أريد أن أستمتع باللعب أكثر من تسجيل الأهداف، شاهدت نظرات الإعجاب في عيون لاعبي الفريق المنافس، وكلما زادت حرارة المباراة، زاد عدد الهجمات المتبادلة بين الفريقين.

وفي لحظة، شعرت بأنه يجب أن أفتح المباراة بهدف، كان «حسام» قد أعطى الكرة لـ«عاطف» الذي ألقاها مباشرةً ناحيتي في الزاوية اليسرى من الملعب، واستطعتُ أن أستقبلها على صدري، وقد أعطيتُ المرمى والمدافع الذي يُرافقني ظهري، ولم أنتظر فقد طرتُ في الهواء مصوبًا الكرة بقوة بقدمي اليمنى، لتطير وتسكن الشباك في الجهة اليسرى وقد وقف حارس المرمى يتابعها بنظره ولم يستطع فعل شيء لها. سعدت جدًا بالهدف، واستقبلتُ تهنئة فريقتي بحرارة ونظرات الإعجاب والغضب من عيون الفريق المنافس، خاصة وأنا نلعب تلك المباراة على ملعبهم.

فهذا فريق حي «عابدين» الشهير، والمباراة تُقام على أرض أسفلتية أمام ساحة قصر عابدين، كانت الأضواء والقصر الملكي تُشعراني بأنني ألعب أمام الملك وحاشيته، فهل ينظر إليَّ الملك الآن ويشير بأن يتم تنويعي ملكًا في لعب الكرة.

كنتُ سعيدًا من الخارج، غاضبًا من داخلي، أريد أن أفعل كلَّ شيءٍ في تلك المباراة، وكأن تلك الشرفات العالية في القصر الملكي قد امتلأت بالجمهور.

لم يتركني فريق «عابدين» استمرَّ في أحلامي فقد هدَّد مرمى فريقنا بثلاث هجمات متتالية، أربكت دفاعاتنا، وشعرنا بقوتهم، خاصة أنَّ بالفريق لاعبين يلعبان ضمن أشبال نادي «الزمالك» الشهير، وقد كانت قدراتهم المهارية مرتفعةً جدًّا، لكنهما يستعجلان الفوز لذا جاءت كرة في العارضة وكرة أخرى استطاع حارس المرمى - ديبا - أن يتصدَّى لها.

تبادلنا الهجمات عدة مرات، ثم نظرتُ لحسام نظرة أن نفذ لعبة - لمسة ولمسة، ثم لمسة ولمسة، ثم تصويبة - كي نتخطَّى دفاعاتهم بسرعة، وبالفعل نفذ «حسام» معي ما أردته.

في الملعب يفهمني حسام من نظرة عيني، هو يُلقي لي الكرة وأنا أُحرز الأهداف، لكن هذا الهدف كان مُختلفًا عن كل الأهداف التي أحرزتها من قبل، فقد كانت الكرة عاليةً وتوقع مدافع الخصم أنني سوف أسددها برأسي، لكنني لم أفعل ذلك، حيث طرت بجسدي في الهواء بطريقة عكسية لأسددها بقدمي في الزاوية العالية لمرمى الفريق المنافس، لكنَّ الحارس استطاع بأطراف أصابعه أن يلمس الكرة ويُغير اتجاهها

وتصطدم بالعارضة لترتدّ لي وأنا منبطح على الأرض، وكانت هي الفرصة التي أنتظرها، وكأنني فهد كان نائمًا على الأرض، فقد قفزت بجسدي كله وسددتها برأسي في متابعة قوية مني.  
هللنا وصحنا وكأننا قبيلة هندية أو أفريقية تلعب حول النار.

وانتهت المباراة بفوزنا بثلاثة أهداف مقابل لا شيء، ثم طلب فريق حي عابدين لعب مباراةٍ أخرى لتعويض خسارته وردّ كرامته التي شعر أنها أهينت، خاصةً أنه يلعب على ملعبه ووسط جمهوره، فوافقنا، وقد كانت مباراةً رائعةً حقًا، وشديدة الحماس والقوة، واستطاع فريق عابدين أن يُحرز هدفين خلال سبع دقائق من عمر الشوط الأول.

لكننا استطعنا أن نبادله سيل الهجمات، وأن نُهدّد مرماه بقوة، إلى أن حصلنا على ضربة جزاءٍ نتيجة عرقلتي عند اقترابي من المرمى، وقيمتُ بتسديدها.

بعد هذا الهدف، أشرتُ لحسام وعاطف وعصام بأننا يجب أن نُوقف سيل هذه الهجمات، وأن نستغلّ الفراغات في دفاعاتهم بهجمةٍ مرتدة، وقد كان، فما كادت الكرة تأتي لي من منتصف الملعب، وقد استقبلتها بقدمي اليسرى وانطلقتُ ناحية المرمى بمفردتي، اعترضني اثنان من لاعبي الدفاع، استطعتُ أن أراوغهما وأمرّ من بينهما بثلاثِ حركاتٍ في سرعةٍ لم يُصدّقوها، وأصبح أمامي حارس المرمى الذي أغلق عليّ الزاوية، إلا أنني استطعتُ المرور منه بمهارةٍ رغم محاولته أن يُعرقلني بقدمه، إلا أنني قفزتُ سريعًا وبالقدم اليسرى سدّدتُ الكرة للمرمى الخالي، مُحرزًا الهدف الثاني وسط صيحات إعجاب الجمهور وكأنه توديع لي.  
وانتهت المباراة وقد فُزنا فيها بأربعة أهداف مقابل هدفين.

عندما عدنا في ذلك اليوم، كانت أحلامي كلها متوقفةً على حلم متكرر: ما ردُّ الجماهير لو كان هذا الهدف قد أحرزته للمنتخب القومي، ومدى تكرار البرامج التحليلية للمباراة التي تتحدث عن هذا الهدف المُتفرد. أشرفتُ عيون فريقتي بعد انتهاء المباراة بفوزنا بأربعة أهداف، رقصنا وتخابطنا، ولم أُرِد أن أضايق فريقتي بمشكّلتني أثناء عودتنا، حتى حسام لم أجعله يشعر بأيّ شيءٍ وإن كنتُ أفكر أن فترة طفولتي قد انتهت!!  
فلم أعد تلميذًا في المدرسة، ولا لاعب كرة موهوبًا يحلم بأن يصير لاعبًا شهيرًا كمحمد صلاح! بل أصبحتُ سائق توك توك.

## الفصل السادس

### حماسة

- كم عمرك؟

- أنا في الرابعة عشرة.. ولكنني أبدو في السادسة عشرة.

- هل عملتَ على توك توك من قبل؟

- كلاً، ولكن قيادته سهلة.

الأسئلة تخرج من فم المعلم «فولة» الذي أجلس أمام مكتبه أنا وأمي، رحّب بنا عندما أخبرته أنني قادمة له من طرف الأستاذ أحمد المحامي لمساعدتنا في تأجير توك توك لعملي عليه. كان ينظر لي ويبدو على وجهه القلق. لكن أمي طمأنته بكثيرٍ من الأشياء. كالتزام بسداد الإيجار اليومي ودفع التأمين المطلوب.

فتح المعلم «فولة» دُرج مكتبه وأخرج بعض الأوراق، ثم نظر إلى أمي وقال: «البطاقة».

تبادلنا أنا وأمي النظرات، ومن كيس نقودها، أخرجت البطاقة وقدمتها له.

- التوك توك هندي الصنع، أفضل من الألماني، يستطيع السير بقوة، حالته جيدة، يدرُّ كثيراً من المال.. لو

اعتنيت به وبصيانته، تستطيع تحقيق ربح يومي أكثر من 300 جنيه في اليوم.

يتحدّث المعلم فولة وهو يدوّن بيانات أمي في العقد أمامه دون أن ينظر لنا.

- ألفا جنيه ثمن التأمين، والتوقيع على شيك بمبلغ ستين ألف جنيه ثمن التوك توك كاملاً.

كنا قد استطعنا جمع مبلغ التأمين، بعد بيع حمام الغيبة، واستدانت أمي المبلغ الآخر من جاريتين في الحارة.

عندما انتهى المعلم «فولة» من كتابة العقد، نهض ووقف أمام باب معرضه الصغير، في الخارج يقف

«التوك توك» ككبسولة رائد فضاء في مركبة فضائية وتستعدُّ للانطلاق.

فور توقيع أمي العقد، طلبت منه المفتاح، رفض بشدة مُتعللاً بعدم إجادتي لقيادة التوك توك، ونادى على

شخص اسمه «أبو الرءوس» جاء من خارج المعرض سريعاً.

قال المعلم فولة لي: «تأخذ التوك توك من الجراج صباحاً في السادسة، وتدفع عشرة جنيهات نظافة ومبيت

لعامل الجراج»، هزرتُ رأسي له بالموافقة.

جاء أبو الرءوس، واتّجه للمعلم فولة مباشرة وقد ثبت نظراته عليّ، وكأنه يُعاين شيئاً ما.

لم يتحدث المعلم فولة معه أو يُجبره بشيء، فقط قدّم له المفتاح ونظر لي أنا وأمي قائلاً: «حصيلة أول يوم

تُقدّم لأبو الرءوس، وبعيداً عن إيجاري اليومي».

لم أفهم أنا وأمي السرّ في ذلك، لكننا فهمنا عندما أشار لي أبو الرءوس بأصبعه، فقد كان مُدرّباً لتعليمي

قيادة التوك توك في شوارع وحواري حي الطالبية المزدهم والشهير أيضاً.

الآن فهمتُ لماذا كان ينظر لي تلك النظرات، هل سوف أرهقه في التعلّم أم سأستجيب سريعاً؟

انصرفتُ أُمِّي عائده للبيت، واتجهتُ أنا وأبو الرءوس للتوك توك، أظهرت براعة شديدة في التعلّم سريعاً، وقد كان أبو الرءوس ليس ماهراً في قيادة التوك توك فحسب، بل وماهراً في السير وسط الزحام أيضاً، طوال الطريق يُعطي لي التعليمات ويردّد كلمة «فاهم» بعد نهاية كل جملة، واكتفيتُ أنا بهز رأسي له بالإيجاب. بعد ثلاثِ ساعات من التدريب عدنا لمعرض المعلم فولة، وقد أشار أبو الرءوس له بيده بالإيجاب، ثم وضع يده على كتفي، فبدوتُ كقزم أمامه: «دفع النقود لرجل الشرطة، معناه الخلاص، قد يسلبك كل حصيلة عملك بضميرٍ مرتاح، لأن أخذ التوك توك ومصادرته معناه الجحيم، الكارثة». عالم جديد أدخله وله قوانينه، ويجب أن أتعلّم.

عدتُ للبيت وقد شعرنا جميعنا ببعض الراحة، وشعرتُ بأنني قد بدأتُ أول خطوة في طريق الدفاع عن أُسرتي، وضعتُ لي أُمِّي طبقاً به سندوتشين من البطاطس المقلية، لم أكن جائعاً، لكنها أصرتُ أن أكل لأن لديّ أعمالاً كثيرة.

أسمع أصواتاً وجلبة خارج الشقة، يبدو أن أحد الجيران بدأ في مغادرة البيت، تنظر لي أُمِّي وتقول؛ «جارتنا «سميحة» وأُسرتها، راحلة للسكن عند ابنها الكبير في بلدتهم بالصعيد»، أُخبرها: لماذا لا تودّعها؟ تُخبرني في حزنٍ بأنها قد ودّعتها أمس وإنما لا تستطيع أن تراها تُفارقها بعد هذه السنوات الطوال من الجيرة والعشرة، وإن هذا صعب عليها.

أتذكر جارتنا «سميحة»، سيدة طيبة، لم نَرَ منها إلا كل خير، كانت تلجأ لها أُمِّي كثيراً في الاستدانة بأي نقود أو أشياء للبيت، وكانت أُمِّي تعطي لها كثيراً من الحب، خاصة عندما مرضت فترة طويلة، كانت أُمِّي تدخل شقتها صباحاً وكأنه بيتها، تقوم بغسل ملابس أُسرتها وإعطائها الدواء وتنظيف الشقة وإعداد الطعام.

عادت أختي «نورهان» من الخارج ومعها قطُّ صغير لا يكفُّ عن المواء، كانت تحتضنه بقوة، وفور دخولها البيت، اتجهت للثلاجة، فتحتها وصبّت له بعض اللبن في طبق بلاستيكي صغير، وبدأ يلحس.

بدا على أُمِّي الضيق عندما شاهدت القط، لكنها ابتسمت قائلة:

- «لا تستطيعين رعايته يا نور، والبيت لا يوجد به مكان، أين يُمكننا أن نتحفظ بقط؟»

- «رجاءً يا أُمِّي، إنه قط جميل، أخذته كذكري من صديقتي لمياء ابنة جارتنا سميحة، وأنا أُحبه».

تحتضن «نورهان» القط وتجلس بجوار أُمِّي؛ «سينام برفقتي على السرير، سأعلمه كيف يخرج فضلاته في الحمام، وأصفف شعره كل يوم، وأطعمه من نصيبي في الأكل، إنه قط صغير، رجاءً يا أُمِّي.. رجاءً أن توافقني».

نورهان التي لا يتوقف فمُّها عن الأكل، أشعر بأنها تكذب من أجل الاحتفاظ بالقط.

أمام إلحاحها تضحك أُمِّي بصوتٍ مسموع، قائلة؛ احتفظي به، ولكن ماذا سميتَه؟ نظرت لها «نور» لحظاتٍ في حيرة، يبدو عليها أنها لم تفكر في البحث عن اسم لهذا القط، قالت بعد أن نظرت ناحيتي، سوف

نطلق عليه: «حمامة».

تضحك أُمِّي بقوة وتقول لها: «جميل».

أعترض في البداية أن يأخذ قطُّ اسم شهرتي، ولكن أمام موافقة الجميع أصبح لدينا حمامتان في البيت؛ أنا والقط.

تقول نورهان؛ «تعال يا حمامة واشرب اللبن» تقولها كي تغيظني.. فلا أستطيع فعل شيءٍ سوى أن أمسك الوسادة وألقيها بها بقوة.

وكان القطُّ حمامة يعلم غضبي من كل كلمةٍ تقولها نورهان، فيموء كلاً رآني، يموء وكأنه يغيظني ويخرج لي لسانه وابتسم ويعلن انتصاره الدائم علي.

انصرفت نورهان للغرفة الأخرى بصحبة القط في سعادةٍ كبيرة وهي تخرج لي لسانها.

بعد أن اطمأنت جدتي من انصراف نورهان، أعلنت اعتراضها لأُمِّي؛ «لا يوجد مكان في البيت لقطُّ.. من أين نطعمه؟».

ابتسمت لها أُمِّي وهي تضع في حجرها طبقاً كبيراً به بعض الأرز لتنقيته قائلة: «لن يُزاحم أحداً في رزقه.. فرزقه على الله».

## الفصل السابع

### توك توك.. توك توك يا باشا

لعل هذا الصباح كان أغرب صباح أستيقظ فيه، لأول مرة أفتح عيني ولدي شعور بأني شخص آخر، نهضت سريعاً، وكأن قطار الوقت يُطاردني، نظرت لصورة «محمد صلاح» على الحائط وهو يبتسم وقد أمسك في يده حذاءً رياضياً كإعلان، بادلته الابتسام، فور خروجي من الغرفة وجدتُ أمي مُستيقظة، تقوم بإعداد أشياء البيت بسرعةٍ عجيبة، دائماً أمي من المبكرين في النهوض، تقول إن استيقاظها بعد شروق الشمس يجعلها متضايقة، وفوق هذا، تشعر حينها بأن العالم كله راح يتعارك منذ مدة ولم تستطع اللحاق به، وكأنها وصلت لحلة الملاكمة في نهايتها. عندما انتهيتُ من غسل وجهي، قالت لي: «هيا للعمل يا حمامة».. وكانت مُبتسمة.

لدى ابتسامة أمي شيء من الحزن، يُغلفها تلك النظرة القلقة دائماً، ولكنها بعد لحظاتٍ تطمئنك أنها بخير ومستعدة لمواجهة العالم.

عند خروجنا من الشقة، أخذتُ أمي معها كيساً بلاستيكيّاً به شيء لا أعرف ما هو، في نهاية الحارة لم نفرق كما كنتُ أتوقع، صمّمتُ أمي أن تأتي معي للجراج لاستلام التوك توك، تعلم أنني مُخرج، وأشعر بالخجل، لكنها شجعتني قائلة:

- «لا تنظر للناس، انظر للهدف الذي أمامك».

حقاً، كنتُ أشعر بالإحراج، أمسكتُ يديها بقوة، طاقة عجيبة تُمدني بها، ظللتُ أردد الإحراج بتذكري بأن هناك عدداً من الأصدقاء يعملون أعمالاً كثيرة في فصل الصيف، وبعضهم يعمل حتى في أيام الدراسة. وهذه ليست المرة الأولى التي أعمل فيها، فأثناء وجود والدي، كنتُ أحياناً أذهب معه لمساعدته، وليهدأ البيت من مشاجراتي الدائمة مع أختي نورهان، هذه هي المرة الأولى التي أعمل فيها بسبب الظروف التي نمر بها.

عند وصولنا للجراج، اكتشفتُ أن الحارس هو «مدربي» أبو الرءوس، ظل يتابعني بنظراته ولم يتحدث، وكأنه يُذكرني بأن حصيلة أول يوم من نصيبه، ابتسمتُ له وأنا أتجه ناحيته لأخذ مفتاح التوك توك، لكنه طلب مني العشرة جنيهاً ثمن المبيت، وضعتُ يدي في جيبي لأعطي له العشرة جنيهاً، كان جيبي خالياً، وفتتُ حائرًا أمامه، ابتسمتُ أمي وأعطتني العشرة جنيهاً، قدمتها له، وأخذتُ منه المفتاح.

عند اقترابنا من التوك توك، فتحتُ أمي الكيس البلاستيكي الأسود وأخرجتُ منه قطعة قماش عليها صورة لمحمد صلاح، ابتسمتُ قائلة لي: «ساعدني للصق الصورة على ظهر التوك توك»، ساعدتها وأنا أشعر بأن صلاح يُرافقني. عندما انتهينا، قالت لي: «هذه الصورة كي لا تنسى حلمك.. هيا كي لا نتأخر».

كلاعب كرة جديد يستعدّ لنزول أرض الملعب لأول مرة، كنت أشعر حينها بأن جميع من حولي ينظرون لي، قفزت أمي في التوك توك كأول زبونة في عملي الجديد، أوصلتها لمكان فرن العيش لتأخذ حصتها اليومية من الخبز، صمّمت أن تدفع الأجرة، وقد دفعتها بسخاء، أثناء هبوطها من التوك توك مُودعة، اكتشفتُ أثرًا من قطرة دمع في زاوية عيونها، لكنها تُداريها في طرف طرحتها. شعرت بألمها وعذابها ولكني لم أستطع أن أفعل لها شيئًا. ضحكك وأنا أشير لها مُودعًا وهي تودعني بالدعوات، وانطلقت، فقد كان يُشير لي رجلٌ وابنه.

قررتُ وضع أجرة أمي في مكانٍ بعيد عن حصيلة التوك توك، لا أعرف لماذا فعلتُ ذلك، شعرت بأنها تضع في يدي قفازات الملاكمة وتُلقي بي في الحلبة، لتُذكرني بأنها امرأة ذات يدٍ بعشرة جيوش، أتمنى أن أكون جنديًا في جيشك يا أمي.

أخرجني من تفكيري صوتٌ مرتفع لأغنية تأتي من «توك توك» قادم من خلفي بقوة، ولا يكفُّ قائده عن إطلاق صوت نفيده ليتماشى مع الأغنية، أراد أن يلحق بالرجل وابنه. بعد أن تخطّاني بسرعة. رفض الرجل أن يركب معه، فنهَره سائق التوك توك وهو يلوّح بيده غاضبًا، جذب الرجل ابنه وركبًا معي.

بدا على الرجل التعجُّل، أخذ يحثني على الإسراع للوصول لشارع الهرم سريعًا، وفي نفس الوقت يُلقي على ابنه عددًا من النصائح، يبدو الابن مُزعجًا من نصائح والده، فلم يكن ينظر إليه، طلب مني فتح الـ DG الخاص بالتوك توك. تعللتُ بأنه لا يوجد رغم كذبي، أشار بأنه يراه، قلتُ له الساعات لا تعمل وتحتاج للصيانة، عندما شعر باليأس مني، وضع في أذنيه سماعات الموبايل الذي ينظر لشاشاته وكأنها نهاية العالم ويجب أن يتابعها، انطلقتُ ووالده مُستمر في إلقاء نصائحه.

تذكرتُ أبي، تمنيتُ أن يكون هذا الرجل أبي ويقدم لي النصائح كما يقدمها لابنه، أين أنت يا أبي الآن؟ كنا قد وصلنا إلى أطراف شارع الهرم الشهير، هبط الاثنان وكان الرجل لا يزال يُعطي النصائح لابنه غير المهتم بسماعه.

وقفت منتظرًا للحظات وأنا أحاول أن أطلق من فمي النداء الشهير على أي زبائن قادمة:

-توك توك يا باشا.. توك توك..

انتبه لوجودي مجموعةً من قائدي التوك توك يقفون على مدخل شارع «عثمان محرم» مع شارع الهرم، جاء اثنان وزعقًا فيّ أن أبتعد، لأن الزبائن التي تأتي من نصيبهم فقط، لم أردّ عليها، ولم أشأ الدخول في معركة هي خاسرة من البداية، انطلقتُ هاربًا بسرعة.

ثلاثة أماكن ذهبتُ إليها خلال الساعة التي مرت، ورغم شعوري بالإحراج، إلا أنه تبدد تمامًا وأنا مُنطلق بالتوك توك، وكأن جسدي قد سخن وامتلئ مهارة السير في الشوارع به، أريد أن أكون عند حُسن ظن أسرتي بي، وأني فعلاً رجلٌ يُعتمد عليه.

كطفل تركته أمه في أول أيام المدرسة، شعرتُ باشتياقٍ لها وأني قد حققتُ مبلغًا مناسبًا مبكرًا، وكنتُ جائعًا، قلتُ لنفسي أذهب إليها وأتناول الفطور معها، تناولت قرطاسًا من الطعمية وآخر من البطاطس المقلية من أول مطعم أمر عليه.

عندما وصلت لمكانها لم أجد فرشاة أرغفة الخبز ولم أجد أمي، كان الشارع خاليًا وكأنه قد تم تنظيفه بمقشة، سألت قلقًا رجلًا يقف في محل بقالة عن سبب عدم تواجد أي بائع بالشارع، رفع الرجل يديه وقال «حسبي الله ونعم الوكيل في الحكومة»، فهتمت الآن أين أجد أمي.

اتجهت لفرن العيش الذي تأخذ منه حصّتها، وجدتها جالسةً وأمامها الأقفاص الخاصة بها، حمدت الله أن رجال البلدية(\*\*\*) لم تأخذ أمي أو بضاعتها. عندما شاهدتني، ابتسمت، رغم طبقة الحزن التي كانت على وجهها لأخذ كثيرٍ من جيرانها الباعة وفرار واختباء الباقي.

أخبرتني أنني خرجتُ صباحًا دون تناول الفطور، صنعتُ لي سندوتشين من البطاطس المقلية والطعمية، كان الصداع يؤلم رأسها، قلت لها إذا كانت تريد أن تعود للبيت للراحة، فأقوم بتوصيلها مجانًا، ابتسمت رافضةً وقالت لي إنها سوف تعود لمكانها ومتابعة عملها، بعد مغادرة حملة المرافق المكان.

تذكرتُ كلمات المعلم فولة وأبو الرءوس عن مطاردات الشرطة لقائدي التوك توك والجهيم الذي يمكن أن يحدث.

خطأ واحد يُكلفني أنا وأسرتي مهنتي ومصيري وكفاحي.  
البلدية: رجال من الشرطة وموظفون يقومون بمطاردة الباعة الجائلين في مصر.

## الفصل الثامن

### أبناء مدينة الزهور

كمركبٍ صغيرٍ ينطلق في بحرٍ مُتلاطمٍ الأمواج، أقود التوك توك في شوارع وحواري منطقة الطالبية الشهيرة والمزدحمة بالسكان، واتجئب العمل في حي «مدينة الزهور» الذي نسكن فيه. مدينة الزهور تلك لا يُوجد بها مشتل زهور أو حتى محل زهور واحد، وهو أمر كان يُدهشني كما أدهش مدرس اللغة العربية عندما كتبتُ عنوان بيتي في استمارة التخرُّج من الصف الثالث الإعدادي، كتبت شارع عبد الغني حسن، مدينة الزهور. نظر المدرس وهو يحكُّ القلم في شعر رأسه وقال ساخراً: «حي مدينة الزهور.. عمره ما خرج منه زهرة واحدة».

رددتُ عليه وأخبرته بأنني الزهرة التي ستخرج من هذا الحي للعالم. يبدو أن ردِّي ضايقه، فسألنا المدرس بصوتٍ عالٍ: ماذا تريدون أن تُصبحوا حين تكبرون يا أبناء مدينة الزهور؟

ما من أحد في الفصل قال شيئاً مُميزاً. كل فتى ذكر مهنة مرتبطة بمهنة والده. لم يُجب إلا «حسام» بأنه يريد أن يُصبح نجماً سينمائياً، وأنا أجبتُ بأنني أريد أن أصبح لاعب كرة شهيراً مثل «محمد صلاح».

ضحَّ حينها الفصل في الضحك، المدرس والتلاميذ، ضحكاتهم كان يمكن أن تسمعها في جميع أرجاء المدرسة، حزنْتُ في ذلك اليوم أنني أخبرْتُ أحداً عن حلمي. تذكرتُ حديث المدرس عندما ضحك عليّ مجموعة من فتيان الحي حين رأوني أقود التوك توك في هذا اليوم.

رغم حرصي الشديد على عدم جلب أحدٍ من سكان الحي بالتوك توك، وارتداء «كاب» على رأسي يُخفي جزءاً من وجهي، إلا أن كمائن شرطة المرور التي انتشرت منذ الصباح الباكر في معظم الشوارع الرئيسية، جعلتني ألبأ بزبائني لشوارعنا الجانبية الضيقة.

وعند ناصية إحدى الحواري، توقفتُ بالتوك توك لهبوط سيدة وأولادها كنت أفلهم، وعلى الناحية الأخرى التفَّ مجموعة من الأصدقاء في المدرسة، وعندما شاهدوني أقود التوك توك، انفجروا في الضحك ساخرين.

كنتُ مُحطماً من الداخل وإن كنتُ أحاول أن أبدو قوياً، قال أحدهم: «كيف يمكن لك أن تصير نجماً كرة عالمياً كمحمد صلاح؟» قلتُ له: «سنرى»، ذات يوم سأصبح مثل محمد صلاح، وذات يوم ستجد صورتي على أغلفة المجلات ووجهي على شاشة التلفزيون».

ضحك صديق آخر بطريقةٍ مُهينةٍ وقد أخرج صوتًا من فمه، وقال: «لديك موهبة كبيرة.. ماذا تفعل بها غير قيادة توك توك»، وقال ثالث: «هل صورة محمد صلاح على ظهر التوك توك ستجعل منك لاعبًا شهيرًا؟»

انفجروا في الضحك مرةً أخرى، لم أُرِد أن أدخل معهم في عراك، وتذكرتُ حينها الفتى الذي كان يقود التوك توك ويجمع كل عدة أيام مبلغًا من المال لعلاج والده، انتظرتُ إلى أن انتهت ضحكاتهم، قلتُ وأنا أكاد أنفجر: «لكنّه على الأقل أفضل من الجلوس في الشارع عاطلاً دون عمل». انطلقتُ بالتوك توك وغادرتُ هاربًا من نظراتهم وإن ظلَّ صوت ضحكاتهم في أذني.

كانت هذه أول لكمةٍ تُصيّني بعد عملي على التوك توك، وبدا أن اللكمة الثانية ستأتي مباشرةً بعد هذا اللقاء، فقد اضطررتُ أن أسير بالتوك توك من أمام محل المعلم «أبو أيمن» عند غروب شمس هذا اليوم، وكان يجلس أمامه وبرفقتِهِ بعض صبيانه، وعندما شاهدني قال بصوته الجمهوري: «هؤلاء هم رجال تلك الأيام». ضجَّ المكان بالضحك، وظلُّوا يسخرون مني ويتندَّرون علي.

شعرتُ بالإهانة وباللكمة القوية تصيّني مباشرة، لكنني لم أتوقف للرد عليهم، وإن كنتُ أشعر بنيران مشتعلة داخلي، هربت دمعة من عيوني رغم حرصني على منعها، وعندما ابتعدتُ وعند أول منطقةٍ مظلمة انفجرتُ في البكاء بشدة.

عدتُ ليلاً للبيت أعصابي مُحطمة، كنت في حالة غضبٍ أعمى ولا أرى شيئاً أمامي، أكاد أنفجر، كانت أصداء الضحكات الساخرة لمُدّرس المدرسة وتلاميذ الفصل وفتيان الحي وأبو أيمن وصبيانه لا تزال في أذني.

شعرتُ بأن حلمي يضيع مني، وأني أبله كي أحلم مثل هذا الحلم، وأن الصلّة بيني وبين محمد صلاح، قد قُطعت، شعرتُ بغضبٍ لأنه لا يراني الآن ولا يشعر بمُعاناتي، ولا بالأزمة التي تمرُّ بها أُسرتي، تركتُ الطعام الذي وضعته لي أُمي ودخلتُ غرفتي، وبدأتُ في تمزيق كل الصور التي زيّنت جدران الغرفة، صورته وهو يبتسم ويحمل كأس أندية أوروبا، الكأس سقطت على الأرض، والابتسامة على وجهه قُمتُ بتمزيقها، الحذاء الأصفر الذي يرتديه قُمتُ بقطع ساقه. صورته وهو مُنحني يقوم بشدِّ رباط الحذاء، صورته وهو يقود سيارته الفيراري الحمراء المميّزة، مزقتهَا وكأنها قُلبت عدة مرات.

جمعتُ كل تلك الصور الممزقة وألقيتُها خارج الغرفة، كانت أُمي تنظر لي ولم تتحدث، ولكنها قالت لي: «سوف آتي لك بالمزيد»، قلتُ لها وأنا أتخطاها: «أنا لست لاعب كرة».

فجأةً أصبحت الغرفة عاريةً من الصور ومن البهجة التي تُزينها، لم يبقَ فيها إلا «التي شيرت» الذي أرسله لي والدي ذات يوم من ليبيا، فألقيته على الأرض، وجلستُ على طرف السرير، وبدأتُ أبكي.

دخلتُ أُمي وجلست بجواري، كانت تنظر على الأرض، شعرتُ بما أمر به، قالت: «لا داعي للغضب»، ثم تناولت «التي شيرت» الملقى على الأرض، وطبّقته بعناية، وأكملتُ قائلة: «التي شيرت القادم سوف

أشتره لك». وتركتني وخرجت من الغرفة طالبةً من أختي تنظيفها.  
أسمع كلمات أُمِّي بضيقٍ وعلَى وجهي حُزنٌ وكآبةٌ، على الأرض بقايا صورة لمحمد صلاح وهو يسبح في  
حمام سباحة ويضرب الكرة برأسه، ضغطتُ بقدمي على الصورة وكأنني أريده أن يغرق.  
كنتُ أفكر: هل حقيقي أن مدينة الزهور لم تخرج منها زهرة واحدة؟  
في هذا اليوم كرهتُ العالم، وكرهتُ حياتي، وكرهتُ أبو أيمن. كنتُ أريد أن أشعر بالأمان، نمتُ من كثرة  
الحزن والبكاء.

في تلك الليلة نهضتُ أُمِّي، وفي المكان الذي أنام فيه، استطاعت أن تُجاورني، تحتضني بقوة، كانت تتكلم  
في أذني، وأنا نائم، شعرتُ بأنفاسها ودفئها، وسمعتُ كلماتها التي تصبُّها في أذني: «أنت رجلي وبطلِي الآن».  
لم أعرف إذا كان ما يحدث حقيقيًا أم حلمًا، فقد كنتُ أشعر كأنني قد أُصبتُ بالعمى. كل شيء كان حولي  
يحوطه ظلام كثيف، أنادي على أُمِّي، أسمع صوتها يأتي ولا أعرف من أين، تقول: «كن رجلاً».  
مددتُ يدي للفراغ، أجد يدًا دافئةً تُمسك يدي، أشعر بانتقالٍ عجيبٍ للأمان.  
لا أدري كم من الوقت مرَّ وأنا أُمسك اليد الدافئة، عندما استيقظتُ في الصباح، وجدتُ نفسي مُستلقيًا  
على الكنبه ويدي على صدري، كانت أُمِّي تنام بجوارِي وتُحيطني بذراعيها، وكنتُ سعيدًا.

## الفصل التاسع

### هروب الأعلام

كلمات أمي جعلتني أشعر بالكثير من الشجاعة والحماس، قررتُ أن أعمل في شوارع وحواري حينًا «مدينة الزهور» بناءً على نصيحتها. واستطعتُ أن أرى تلاشي نظرات السخرية التي شعرتُ بها بالأمس إلى نظرات امتنان، خاصة عندما قمتُ بإنقاذ إحدى الجارات بإيصالها سريعًا للمُستشفى قبل وضع طفلها عندما أصابها ألم الولادة.

منذ صباح اليوم العمل على أشدّه، أشعر بأنني في مباراة كرة قدم طويلة ويجب اللعب بقوة، فلا يوجد وقت لأي عرقلة ولا يوجد أي اعتراضاتٍ على حكم المباراة، يجب أن أستمّر في اللعب حتى أستطيع تحقيق هدف.

أُوصل أول زبون معي إلى محطة مترو أنفاق «أم المصريين»، وقبل أن أنطلق يقفز راكب يُريد أن يذهب إلى أكاديمية الفنون، كان شابًا بملابس مُتسعة، يضع حقيبة على ظهره وساعات الموبايل في أذنيه ونظارة شمسية على عينيه وكأنه لا يشعر بالعالم حوله، أخبرته بأن الأجرة عشرون جنيهاً، لم يرد عليّ.

انطلقتُ وأنا أخشى السير في شارع خاتم المرسلين في هذا الوقت المبكر، فأجد إحدى دوريات الشرطة التي تُطاردنا، لكنني لم أجد أي شيء، وصلتُ سريعًا، كان الطريق شبه خالٍ، أعطاني خمسين جنيهاً، وقبل أن أبحث عن باقي النقود، قفز من التوك توك داخلًا الأكاديمية.

وقفتُ أطل على بعض صور الفنانين التي رُسمت على جدران سور أكاديمية الفنون، وقد تذكرتُ صديقي حسام، كنت أريد أن يلتقي حسام به، ويتحدّث معه، سوف يعلم أن حسام موهوب في التمثيل، وربما يُساعده في دخول مجال السينما والتلفزيون.

أُحب حسام، أنا أصغر منه بشهرين، سيكمل الخامسة عشرة بعد ثلاثة أشهر، حسام طويل القامة ونحيل ويبدو ودودًا، له بشرة قمحية ووجه جميل متناسق، عيناه سوداوين وشعره أسود وغزير وناعم، وهو ما يجعله يُصنفه بالطريقة التي يريد، لكن أجمل ما فيه ابتسامته.

حسام يهتم دائمًا بمظهره، يعلم أنه وسيم، كلّمنا شاهد صورة قصّة شعر أو رداء مُمثل، يحاول أن يُجاريه، ويتحرك ويتصرف وقد ارتدى شخصية ذلك الممثل، فوالده يستطيع أن يأخذه لشراء ملابس له من سوق «وكالة البلح» للملابس المستعملة.

يُحلم حسام بأن يلتحق بمعهد الفنون المسرحية، عيناه كلما مرّ بشارع خاتم المرسلين تطلّ تنظر إلى معهد الفنون المسرحية أو معهد السينما وقاعة سيد درويش الشهيرة.

ذات يوم جاء حسام مرتديًا جلبابًا وهو يُقلد شخصية «الشيخ حسني» في فيلم «الكيت كات»، كان يضع نظارة سوداء على عينيه، ويرفع مرفقيه ويتحسّس بقدمه الطريق، ضحكنا بشدة خاصة وهو يقلد طريقته في

الكلام، في الختام قال: «أنا أحسن من محمود عبد العزيز».

هزّنا رءوسنا بالإيجاب ونحن نضحك بشدة، كان خفيف الظل فعلاً، وطلبنا منه أن يُكرر تقليد شخصيته خاصة في مشهدٍ وهو يقود كفيفاً في الشارع. فاختارني لمساعدته في تنفيذ المشهد، لكنني كنتُ فاشلاً في التمثيل. خبطني على كتفي قائلاً: «فاشل.. حمامة فاشل.. موهوب فقط في كرة القدم». اشتقتُ لرؤية حسام، من المؤكد أنه عِلِمَ بأنني أعمل على التوك توك وكنت منتظراً ردَّ فعله عندما أراه. عند الظهيرة انقلب الحماس وحرارة العمل على التوك توك إلى خوفٍ وقلق، عندما انتشرتِ الأنباء عن حملة كبيرة للتطهير تأتي بالشرطة، ضباط الشرطة لا يُحبون قائدي التوك توك. يُطاردوننا كما يُطاردون الذباب بمضربٍ بلاستيكي. من يقع لا يعود.

عدتُ سريعاً للبيت وكان جسدي يرتجف، تركتُ التوك توك أمام البيت ودخلت، لم أكن أعرف ماذا أفعل! ولم يكن لديّ رغبة للجلوس في البيت، هربتُ كما كنتُ أفعل في الماضي، لسطح البيت. على السطح الغيّّة خالية من الحمام، اشتقتُ له بشدة، صورة الغيّّة وهي خالية، كئيبة وموحشة، لم يُخرجني من هروبي إلا صوت خطوات صعودٍ على السلم، كانت خطوات حسام.

يبدو أن حسام كان ينتظر هذا اللقاء أيضاً، فلم يُلقِ عليّ السلام، ظلّ واضعاً يديه خلف ظهره وهو يتجول على السطح ذهاباً وإياباً، وكأنه والدي ويخشى على مستقبلتي. وأخيراً توقّف عن السير وألقى عليّ سؤالاً:

- «هل تشعر بالحزن لترك المدرسة وعملك على توك توك؟»

- «لديّ بعض دون شك. بالتأكيد يُوجد بعضه» ثم توقفتُ عن الكلام، كنت أفكر في سؤاله، أكملت: «كل ما أفكر فيه حالياً هو جمع المال ومساعدة أسرتي».

يقول لي: «إنك متخلف عقلياً»، ويضحك عالياً، «مجنون».

وبمهارةٍ شديدة قفز حسام وجلس على حافة السور، أطلّ ناحية الغيّّة ثم هز رأسه، وأخذ يهز أقدامه صعوداً وهبوطاً، ثم قال:

- «ألا تشعر بأي أهمية لمستقبلك يا حمامة.. حلمك بأن تُصبح لاعب كرة شهيراً».

- «إنني أشعر بذلك إلى حدٍّ ما دون ريب.. بالتأكيد لديّ مثل هذا الشعور»

قال حسام وهو يقفز من على السور ويقترّب منّي واضعاً يده على كتفي:

- «سوف تفكر في ذلك يا حمامة.. سوف يحدث ذلك ولكن عندما يفوت الوقت».

ضايقني ما قاله، إذ جعلني أشعر بأن ما أفعله دون قيمة.

ظلّ حسام يؤدّي دور الأب الذي يخشى على مستقبل ابنه، فأكمل: «أودُّ أن تفهم أنني لا أريد مُضايقتك..

إنني أحاول مساعدتك.. أحاول مساعدة صديقي الوحيد».

نهضت، وكان عليّ أن أنصرف. فقد حان وقت الذروة في العمل ويجب أن أعمل كثيرًا باقي اليوم لتعويض خسارتي الصباحية، هبطتُ أنا وحسام سُلم البيت في صمت، ركب معي التوك توك، وكأنه يقوم باختباري في مهنتي الجديدة، انطلقتُ سريعًا تجاه شارع الثلاثيني المُزدحم والمُمتلئ بالمطبّات الصناعية.

عند نهاية الشارع خبط حسام على كتفي طالبًا الهبوط: «قف».

هبط من التوك توك وقد نظرت لي وكأنه ما يزال يبحث عن حلمي داخل نظرات عيوني، ثم قال: - «سوف أذهب في الخامسة إلى الملعب، اللعب بدونك يا حمامة ليس له قيمة.. هل تتصوّر أننا أمس هُزمتنا

في ثلاث مباريات، وضحك علينا كثيرٌ من لاعبي الفرق الأخرى»؟

لم يُسعدني ما يقوله حسام، بُعدي عن الكرة كأنني سمكة خرجت من الماء، لكنني لا أستطيع أن أعود للعب الكرة والتصرف كأني فتى عادي، لقد أصبحتُ رجلًا، وهم لن يفهموا ما تمرُّ به أسرتي مهما أخبرتهم.

- «مع السلامة يا حسام».

تصافحنا، وانطلقتُ بالتوك توك وأنا حزين جدًّا.

## الفصل العاشر

### علامات

كفرد حمام شرد من سر به واختلطت عليه ألوان العلامات التي تلوح له على الأسطح دون وجهةٍ يحطُّ عليها، كنت أقود التوك توك تائهاً بعد لقاء حسام، لم أكن أفكر في كلماته أو ما قاله عن ضياع حلمي وأني مجنون، كنتُ حزيناً وغاضباً من هزيمة فريقتي بهذا الشكل القاسي.

انطلقتُ بالتوك توك بعيداً عن حي الطالبية، في غضبٍ أردتُ الابتعاد عن كل شيءٍ يعرفني أو أعرفه، أهرب من شيءٍ لا أعرفه، وفجأةً تذكرتُ أنني لم أكن قد حققتُ ربحاً جيداً، شعرت حينها بأن الهروب ليس هو الحل، وقبل أن أستدير عائداً قابلني على جدار إحدى العمارات إعلان عن عطرٍ لمحمد صلاح، الإعلان ليس جديداً، شاهدتهُ كثيراً، لكن نظرتُه وابتسامته كانت مختلفة لي.

تعمدتُ أن أنظر له بقوة، كل شيءٍ في وجهه وجسده واضحاً، عيناه السوداء، ذقنه النابتة في عدم تناسق، شعره المجعد وغير المصفف، عروق رقبتة الدقيقة، رشاقتة العائدة لخفة جسده، عضلات جسده المنحوتة والتي تظهر بدقة عندما يُحرز هدفاً فيخلع التي شيرت، وزجاجة العطر في يده، يرشُّ منها على وجهه.

ذات مرةٍ ذهبت لبائع عطور في شارع عثمان محرم وطلبت منه هذا العطر بصورةٍ أحملها في يدي من الإعلان، قصصتها من إحدى المجلات، لم أجد نوع العطر، حاول البائع أن يُعطيني عطرًا آخر، رفضت، غضب الرجل، وقال لي هذا عطر غالي الثمن جداً.. من هنا يستطيع شراءه؟.. من يستطيع أن يحصل على عطر محمد صلاح الأصلي؟

أفكر في ضيق كم هو شيءٌ جيد أن يكون للإنسان أمنيات بسيطة، غير مُعقدة، مثل وضع عطر لآعبه المفضل. لكن حتى هذه الأمنية أصبحت من المستحيلات.

أخرجني من أفكارني نداء ثلاث فتيات لي، عندما ركب، قالت إحداهن: «شغل لنا أغنية»، أطلقتُ إحدى الأغنيات من الـ DG.

طوال الطريق لم يكففن عن الضحك على أي شيءٍ، وكأنهن لا يُشاهدن أحد، يرقصن ويتماوجن وهنَّ جالسات على نغمات الأغنية، يبدو أنهن خرجن من قُممٍ ويقمن بتعويض حبستهن بتلك الطريقة، وكلهنَّ يمضغن اللبان بحجم كبير في أفواههن، ينفخنها فقاعاتٍ تلو الأخرى، وكأنهنَّ في سباق، وكلما فرقت إحداهن، تقوم الأخرى بصنع واحدةٍ أخرى لفرقتها، كأنهنَّ يُطلقن النيران على بعضهن بأسلحةٍ من أفواههن.

شعرت ببعض السعادة وصممتُ أن أبادهن سعادتهن، فلم أكن أشعر إلا والتوك توك ينطلق وأنا أتراقص به يميناً ويساراً وكأنني في مباراةٍ حماسية، حتى كدتُ أقلبه فجأةً؛ بسبب اندفاعي عابراً إشارة مرور حمراء، نعتني قائد سيارة يأتي من الاتجاه المقابل، ولكنني كنت قد عبرت ماراً بالتوك توك بخفة ورشاقة،

وكأنني أعبر وأمر بين لاعبين بحركة ماهرة. اشتقتُ للعب الكرة، وكانت كلمات حسام ما تزال تضغط علي، لكنني أحاول أن أتحاشاها.

ظللتُ منطلقًا بالتوك توك والمهرجان الذي يجلس خلفي على أشدّه حتى وصلن، عندما هبطن، دفعت كل واحدةٍ منهن جزءًا من الأجرة، ولم أتناقش معهن في القيمة، كنتُ سعيدًا بأنني استطعتُ إسعادهن. وقفتُ أتابعهن، اتضح أنهن يعملن في ثلاثة أماكن متجاورة، إحداهن مُصنفة في كوافير للنساء، وأخرى بائعة في محل ملابس نسائية، والثالثة في مستوصف طبي.

تذكرتُ أختي نورهان ووفاء، أريد أن أسعدهن أيضًا، أن أجلب لهن شيئًا، تركت التوك توك واتجهت للفتاة في محل الملابس وأنا مُرتبك، هذه أول مرة أشتري فيها شيئًا لفتاة، عندما شاهدتني اعتقدت أنني جئت بسبب زيادة في قيمة الأجرة، لكنني أخبرتها سريعًا بمقصدي، ابتسمت ونظرت لي بعيونٍ متسعة فأطرقت بنظراتي للأرض، اعتقدت أن ما أريده لفتاة أحبها، لكنني أخبرتها أنه لأختي، اختارت بلوزة زرقاء في نقاطٍ حمراء، كانت جميلة ومذهلة حقًا، ووقفتُ حائرًا عندما سألتني عن مقاسها، ضحكتُ من ارتباكي وحيرتي، حاولت تقريب حجم أختي لها، ثم قدّمت لي المقاس، قائلة: «مقاس 4»، لم تُرد أن تأخذ مني نقودًا، مقابل البهجة التي صنعتها لهن في التوك توك.

شكرتها بحماس، وعدت للتوك توك وأنا غارق في السعادة، انطلقتُ به وسط الزحام دون وجهة وأنا أطلق نفيره دون سبب.

أشارت لي فتاة يافعة وصغيرة، بدت لي رغم صغر سنّها كأنها أختي وفاء، شعرها الأسود الطويل مسدول، وقد صنعت منه ضفيرة طويلة تصل إلى منتصف ظهرها، تتدلى على كتفها اليسرى حقيبة. ترتدي فستانًا لازورديًا بأكمام واسعة، ينهمر منفوشًا بدءًا من خصرها وكأنها نجمة سينمائية خرجت للتو من الشاشة فجأة، كل شيءٍ بها جميلٌ وملاحظتها تُشعرك بالطمأنينة، سعدت التوك توك وقالت بعد أن جلست: - «أهلا يا حمامة».

دُهشت من الصوت، ظننتُ أنها تعرفني رغم تنكّري بالكاب الذي يُخفي معظم وجهي، أو هي جارة لنا، أخبرتني أنها صديقة لأختي وفاء في المدرسة، وهذه أول مرة تراني، لكنها تعرفني من صورة لي تحملها أختي في حافظة حقيبتها، حدثتني عن نفسها. وأنها تستعد للثانوية العامة بقوة، طموحها أن تُصبح طبيبة مثل أختي وفاء، سألتني عن أبي، أخبرتها بأنه لا يوجد أخبار عنه، سألتني عن نفسي:

- «ما هو طموحك»؟

حديثها فاجأني، أفكر لحظات، أردتُ أن أخبرها بأنني أحلم بأن أصير لاعب كرة شهيرًا كمحمد صلاح، لكنني أخجل من ذكر ذلك، ولم أرد أن أخبرها بما حدث لي أنا وأسرتي خلال الأيام الماضية.

- ليس لي طموح.

- لا أحد ليس لديه طموح.

- أريد أن أصبح لاعب كرة شهيرًا كمحمد صلاح..  
أتحدث بغضب شديد. وأنا منتظر أن أسمع ضحكة ساخرة تنفجر من الخلف. نظرت في المرأة، وجدتها  
تصغي لي باهتمام شديد. أكملت ساخرًا:  
- إنه حلم ساذج.. لا داعي للسخرية.  
- هل أنت مؤمن به؟  
- أجل، إنني أعشقه، كنت أتدرب ليل نهار حتى أستطيع أن أصبح لاعب كرة، لكنني فشلت.. فشلت في  
كل شيء..  
- وماذا فعلت؟  
- ذات يوم كنتُ مُقتنعًا أن التَّقاضي من قبل مركز شباب الطالبة هو أفضل شيء حدث لي حتى الآن وأن  
حياتي ستتحول..  
- وبعد؟

أنفجر في الضحك وكأني أخشى تذكر ما حدث. أكمل:  
- المدرب الذي كان يجري الاختبارات لم تقع عيناه عليّ.. كان منشغلًا في الحديث في هاتفه.. ولم ينظر  
ناحيتي مع أنني كنتُ أبذل قصارى جهدي بالكرة.. في التمرير وفي المرور بين لاعبي الفريق المنافس..  
لأجده يختار لاعبًا آخر..  
- وما المشكلة؟.. جرب طريقًا آخر.

بكيْتُ بقوة حينها، رغم محاولتي ألا أبكي، بكيتُ وكدتُ أصدم امرأة وابنتها في الطريق. قالت الفتاة:  
- أعلم أنك ليس فتىً مُميزًا في المدرسة، فأنت متوسط المستوى، لكن وسط ملعب الكرة، تظهر ميزتك  
الكبرى.. ألم تحصل للمدرسة على كأس دوري المدارس؟  
كنتُ في دهشة أن تُخبرها أختي وفاء بكل هذه الأشياء.. لكنني أشعر بالطمأنينة في الحديث معها، قلت:  
- أجل.. لقد استطعتُ أن أحرز المركز الأول للفصل.. وبالتالي أصبحت عضوًا أساسيًا في منتخب  
المدرسة، واستطعتُ أنا وفريق المدرسة أن نحصل على بطولة دوري المدارس.. رغم صعوبة المنافسة مع  
الفريق الأخرى.

- وماذا حدث بعدها؟  
أخبروني بأنه قد تمَّ اختياري مع بعض التلاميذ من مدارس أخرى للتقدُّم لأشبال أحد الأندية الكبرى..  
مقابل دفع مبلغ كبيرٍ من المال.. وعندما جمعت أمي المبلغ بصعوبة.. وضعوا اسم لاعبٍ آخر هو ابن أحد  
مسئولي التعليم بالمنطقة.

- وهل هذا يُعيقك عن إكمال حلمك؟  
انفجرت الكلمات في غضبٍ من فمي:

-لقد تبدلت الظروف.. فنحن نمُرُّ بظروفٍ صعبةٍ ويجب أن أعمل لإنقاذ أسرتي وأمي.. فالظروف  
المُحيطة بي تُعرقلني.. وتكاد تجعل حلمي يتلاشى.

في هدوءٍ شديدٍ قالت:

-وقت عصيب.. يمرُّ به كل الناس.. حمامة، هل تُشاهد النظرات الحاسدة لك لأنك مُميز.

-كلاً.. إنني لا أعرف ما هي ميزتي.

-حمامة.. أسوأ ما في الكون الموهبة الضائعة..

انقبضت بطني، وبلعتُ ريقِي بصعوبة، كلماتها جعلتني أشعر بأنني عاجز، محبوس في خندق ولا أستطيع  
الخروج منه. أردتُ التخلُّص من كلماتها، قلت لها غاضباً.

-إنني سيئ الحظ.. وسوء الحظ يُطارِد أسرتي أيضاً، ماذا تريد مني؟

ضحكت ضحكةً ناعمةً لم أسمعها من قبل، رغم ضجيج الزحام والفوضى حولي.

-ليس في الكون شيء اسمه سوء حظ أو صُدْف.. بل يُوجد علامات.. هل تستطيع فهم العلامات. ثم  
أشارت بيديها على صورة لمحمد صلاح يضعها أحد المقاهي على واجهته، وقالت:

-انظر.. هل نظرة صلاح هذه لك الآن علامة على أن تصبر، أم هي ابتسامة سخرية مما تفعله؟ حاول أن  
تقرأ العلامات جيداً.

طلبت مني التوقُّف للهبوط، أعطتني أُجرتي، لكنني رفضتُ من سبيل أنها صديقة أختي، لكنها رفضت  
بشدة وقالت:

-«هذا عمل.. ولا تنسَ العلامات.. وتذكَّر التي شيرت الذي أرسله لك والدك ذات يوم»، ثم تركت  
النقود على المقعد الخلفي للتوك توك وغابت وسط الزحام.

فَرَّت دَمعة من عيني وأنا أنظر لصورة محمد صلاح، وأفكر في سؤال تلك الفتاة الجميلة، أفكر كيف لي  
وأنا لم أتجاوز الخامسة عشرة أن اقرأ تلك العلامات. مددتُ يدي لأخذ الأجرة من المقعد الخلفي، لم أجدها،  
وجدت مكانها زجاجة عطر محمد صلاح الأصلية.

## الفصل الحادي عشر

### مو.. حمامة

عدت للبيت سريعاً، أدخل شقتنا مندفعاً، ألقى بنفسي فوق الفراش، عيناى ممتلئة بالدموع، وجسدي يرتعش، أُمى يُصيبيها الذُّعر، تجري خلفي وتصرخ قائلة: «حمامة، حمامة ماذا حدث لك؟»  
أضحك بقوة، لقد حدث أكثر الأشياء إدهاشاً في حياتي يا أُمى، هذا هو يوم السعد، بل أسعد يوم في حياتي، أنهض وأنا أمسك زجاجة العطر التي تركتها فتاة العلامات، أنظر لها وأرش منها على جسدي وعلى أُمى وجدتي وأختاي والقط «حمامة».

تحجرت عيون أسرتي عليّ، وشعرت أُمى أنني ربما قد تعاطيت شيئاً مما يتعاطاه الفتيان، أخرجت من جيبي حصيلة التوك توك وقد وضعتها في حجرها، ثم ناولت أختي وفاء البلوزة التي أعطتها لي فتاة المحل، نظرت لي أختي نورهان بشيء من الغضب، أخرجت لها سندوتش «كريب» كبيراً وطلبت منها أن تقسمه مع جدتي التي كنت أحتضنها في تلك اللحظة، حتى القط حمامة لم أنسه، اشتريت له بعض شرائح من اللانشون.

دخلت الغرفة الأخرى، باحثاً عن تي شيرت محمد صلاح، سألت أُمى، فأخبرتني أن أبحث عنه في الدولاب، وأنا أشعر بسعادتهن في الغرفة الأخرى، أسمع حديثاً متبادلاً بين جدتي وأختي نورهان.

جدتي خيالها أعمق من المحيط، تحكي لها إحدى حكاياتها، وهي منتظرة نصيبها من السندوتش الذي يبدو أن نورهان تلتهم منه حصة أكبر، حكايتها تقول: «كان هناك فلاح يعمل في حقل بطيخ، عندما توقف ليرتاح قليلاً تحت نخلة طويلة فسقطت على رأسه بلحة، همست له نفسه وهو ينظر إلى أعلى: ربي، إنني حقاً لا أفهم أساليبك في الحياة. لماذا جعلت هذا البطيخ الضخم ينمو قريباً من الأرض على أغصان نحيفة وضعيفة، وتعلق هذا البلح الصغير على جريد قوي؟ أما كان أجدى لو عكست الأمر؟! وفور انتهائه من حديث النفس هذا، هبّت ريح قوية وتساقط بعض البلح من النخلة على رأسه، فصرخ الفلاح من الألم، وهكذا عرف خطأه، وهو يتحسّس رأسه من أثر ضربات البلح. قال: «إلهي أرجو أن تُسامح لساني السليط، الآن فقط عرفت لماذا لم تُدليّ البطيخ من الأشجار، فلو أنك وضعت البطيخ مكان البلح، لما كنت الآن على قيد الحياة، دع كل شيء في مكانه، أرجوك، فأنت أعلم مني بكل شيء».

تتنفّس نورهان بصعوبة نتيجة الأكل الذي في فمها وتقول لجدتي: «وما شأنى أنا بهذه القصة؟»، قالت جدتي: «أيتها الفتاة المجنونة. ألا تُدركين شيئاً؟»، قالت لها نورهان: «دعيني وشأنى يا جدتي.. أريد الاستمتاع بالأكل».

كنت أفكر في حكاية جدتي، وأنه يُوجد حكمة من كل شيء، أفكر ما الحكمة في تلك الكارثة التي وقعت على رأس أسرتي؟ من المؤكّد يوجد سبب لا أستوعبه، أتذكر أنه لا شيء يحدث صدفة، هي علامات كما قالت الفتاة الجميلة.

عثرت على التي شيرت بعد بحثٍ كثير، رششتُ عليه من زجاجة العطر وقمت بارتدائه، أشعر بأن محمد صلاح معي، أنظر في المرآة، أكاد أتطابق معه، شعري المجدد غير المصفّف، وجهي المصوص، جسدي النحيف. ابتسامته. لم يبق إلا ذقنه النابتة دون تهذيب. أتذكر أنني لا زلتُ صغيرًا.

ربما تكون هذه هي المرة الوحيدة التي أنطلق فيها إلى الملعب وأنا أشعر بأنني شخصٌ آخر، أشعرُ بمرح وسعادة بداخلي وعطر محمد صلاح مُنطلق من جسدي ويغرق كل شيء حولي حتى وصلت أرض الملعب. صحت بأعلى صوتي: «لقد جاء لكم «مو حمامة» أيها الضعفاء».

عينا حسام وباقي فريقي تُشرقان، أشاهد السعادة في عيونهم، نفس السعادة التي شاهدتها في عيون أمي وإخوتي منذ لحظات.

شعرتُ بالارتجاف عندما شاهدت الملعب، وكأنني أشاهده لأول مرة، في لحظة تحولت لبؤرةٍ والجميع ينظر إليّ. في لحظة شعرتُ بأنني أحلم وقد وقفت وسط استاد القاهرة، والجماهير تُطلق اسمي: -«مو.. حمامة.. مو حمامة».

الفرحة الكبيرة على وجوه فريقي، قابلها غضب شديد من الفريق المنافس، أشرتُ لحسام وعاطف بأن يستعدوا، فما حدث أمس معهم لن يتكرّر، وصحتُ بصوتٍ مرتفعٍ بأنني أستطيع إحراز هدف قبل نهاية الدقيقة الأولى من نزولي الملعب، وبدأت المباراة.

كانت المباراة قد بدأت قبل مجيئي، وفريق منطقة «الجلب الأخضر» في قَمّة تألقه وحماسه، وقد أحرز هدفين خلال عشر دقائق. وكان لهم جمهور يهتف لهم بجنون.

كنت أعرف تكتيك لعب هذا الفريق جيدًا، إنه يعتمد على لاعبٍ واحدٍ اسمه «سمسم» فتى سريع وضيئل الجسم، وذا ساقين دقيقتين كقلميّ رصاص، لكنه لا يمتلك مهارة المراوغة، لذا طلبتُ من حسام ألا يُعطي له مساحة كبيرة ليتحرك فيها ومعه الكرة، فلن يلحق به أحد من فريقي إذا استقبل الكرة وانطلق بها.

عندما بدأت أول هجمة حقيقية، شعر فريق الجلب الأخضر بالتغيّر السريع الذي حدث بين خطوط فريقي، ويبدو أن اللاعب «سمسم» قد سمع تحذيراتي وتعليماي لحسام وعاطف، فقد قام لاعبٌ بعرقلي من الخلف عندما اقتربتُ من المرمى، بعدها قام بضربي على ساقي بقدمه بقوة وأنا نائم على الأرض، شعرت بالألم الشديد والغضب الكبير، لكنني نهضتُ سريعًا، فقد قاربت الدقيقة على الانتهاء.

في سرعة قمتُ بتبادل الكرة مع حسام وعاطف بثلاث ركلات، ثم استلمت الكرة وراوغت لاعبين داخل منطقة الجزاء، قبل أن أُصوب الكرة في الزاوية العليا للمرمى، مُحرزًا الهدف الأول.

كسبتُ الرهان، فلم تمر الدقيقة إلا وهدفنا الأول يسكن شباك مرمى الجلب الأخضر. وبسببه تحوّلت حماسة لاعبي فريق «الجلب الأخضر» إلى عنف شديد، تكسير في الأقدام بالكرة أو بدونها، مزاحمة وعرقلة دون مُبرر، وتوقّف اللعب عدة مرات اعتراضًا على طريقتهم الخشنة في اللعب.

قال لي حسام: «سوف يقتلوننا».

انتهت المباراة بفوزنا بخمسة أهدافٍ مقابل هدفين، كان فوزنا مميّزًا جدًّا. في سعادة نُطلق صرخاتٍ طويلة حادة ونحن وسط الملعب، نُطلقها بحماسٍ وسرور، حين نُحرز هدفًا استثنائيًّا، وكأنه قطعة موسيقى تظل عالقة بالذاكرة وتُرددها دائميًّا أو هدفًا يُشابه هدفًا أحرزه محمد صلاح في إحدى المباريات. حاول فريق منطقة الجبل الأخضر أن يُعوض خسارته بلعب مباراتين أخريين، لكنه خرج مهزومًا فيهما أيضًا. رغم استعانته بلاعبين من خارج صفوفه.

ظللنا نُهلل ونصيح بعد انتهاء المباراة الثالثة، وطوال الطريق كنّا سعداء، لكن سعادة فريقي كانت أكثر من سعادي لأنني عدتُ لهم، وبمناسبة أنني كسبتُ الرهان، قررت أن نذهب لأكل الكشري في محل «رسلان» الشهير، فقد كان في جيبي مبلغٌ من المال من عملي على التوك توك.

ظللنا نُهلل حتى دخلنا المحل، وقف حسام في سعادة وقد حمل كوبًا فارغًا أمام فمه وبأدائه التمثيلي وبلهجةٍ استعراضية أقرب لمُعلقي كرة القدم في التلفزيون، أخذ يقلد أحد مُعلقي المباريات في التلفزيون.. كان يقلد المعلق في إتقانٍ شديد بلكنته التونسية المميزة والمُحبة للجمهور، ما جعلني أتخيل أن كاميرات التلفزيون أمامي تُتابعني وأنا أَلعب المباراة:

- «أيها السادة المشاهدون ننقل لكم اليوم وعلى الهواء مباشرة مباراة كرة القدم بين فريقي مدينة الزهور وهو المُمثل الأساسي لحي الطالبية وفريق منطقة الجبل الأخضر.. المُمثل الأساسي لحي نزلة السمان، وها نحن نشاهد الآن فريق الزهور يتقدّمه اللاعب السوبر، العالمي المُخلّص «حمامة» وهو يرتدي تي شيرت 11 لمحمد صلاح، فهل يكون لدينا صلاح آخر، إننا أمام موهبة مميزة لم نرها من قبل، إنه يجمع في حركاته جميع الطيور، رشيق كحمامة، ينقض على الكرة كالصقر، يخطف بقدمه الأهداف كالنسر، أقدامه هذه عشرة أقدام، تجده في كل مكان، وها هو الجمهور يُطلق لقب حمامة ويستدعيه لتحيته».

كنا نضحك بشدة لدرجة أن جميع زبائن المحل توقفت عن الأكل وظلّت تنظر لنا وتتابعنا، يُكمل حسام تعليقه وهو يمسك الكوب الفارغ:

- «والآن سنلتقي مع حمامة لمعرفة شعوره بعدما أحرز أول هدفين في المباراة وخلال جلسة الاستراحة» يُقرب حسام من فمي الكوب الفارغ، وأنا لا أعرف ماذا أقول من كثرة الضحك.

يعود حسام لأخذ دور المذيع ويكمل: «إنه خجول أمام الكاميرات والجماهير.. لكنه الآن سيروي لنا هذا اللاعب الفذ — حمامة — وقائع هذا الهدف وكيف سجّله، هيا تحدث أمام الكاميرا لا تخجل أيها الصغير، أخبر المشاهدين بما جرى حين استقبلت الكرة على صدرك، وحين اعترضك اللاعب رقم ستة من الفريق المنافس».

يقترّب حسام منّي ويضع الكوب الفارغ أمام فمي، أصمتُ ولا أعرف أن أجاري حسام في خفّة دمه، يكمل حسام إذاعته: «ولقد أُصيب إصابات بالغة، فهل ينهض حمامة لإكمال المباراة أم يتم استبداله.. لكن يبدو أن حمامة قد تبدّل، فهذا هو يعود إلى أرض الملعب وسط تصفيق الجماهير.

ننفجر جميعنا في ضحكٍ قوي ونُثير الضجيج، حتى يأتي عمّال المحل ويقومون بطردنا منه.

## الفصل الثاني عشر

### صحتي

والآن، إنها الظهرية المشتعلة في الطالبية، العمل على أشده، أقود التوك توك وأنا أتراقص به، وقد انطلقت أغنية «آه لو لعبت يا زهر» منه، أتراقص كأنني في مباراة بعد أن اكتملت أول مائة جنيه في ساعتين، أستطيع أن أكمل حصيلتي إلى أربعمائة جنيه، منها 100 إيجار التوك توك وثلاثمائة أعطيهم لأُمِّي، وتوقفتُ أمام أول زيونٍ يشير لي، كان شخصًا يرتدي بدلةً بُنيةً ويحمل حقيبةً وفي فمه سيجارة، ويبدو أنه متعجل الذهاب إلى مترو الأنفاق، توقعت أنه مُحَام، لم ينظر لي ولم يتحدث معي، كل ما قاله «المترو»، خفضتُ صوت الـ DG بالتوك توك، وقد راهنتُ نفسي إنه محام، ومن خلال محادثته في الموبايل مع أحد الأشخاص، أخبره بأنه ذاهب الآن لمحكمة إمبابه، سعادة كبرى أشعر بها عندما تصدق توقعاتي.

لكن في وسط الميدان، وعلى البناية العملاقة، إعلان فوقها لمحمد صلاح، ينظر لي مبتسمًا، ابتسامة ثقة ونجاح، تحت عنوان، أنت الأقوى، كان الإعلان عن مكافحة المخدرات، لكن أين القوة يا صلاح الآن؟ إنني أشعر بأنني وأُسرتي مثل ورقة الجرنال تلك التي في منتصف الشارع وجميع العربات تمر عليها سريعًا وتتطاير هنا وهناك دون أن يشعر بها أحد، مُلقاة إلى أن تتلاشى من الوجود من كثرة الدهس، حاولت تحاشي تلك الابتسامة، لكنها كانت تُلاحقني كلما ابتعدتُ بالتوك توك.

وصلنا لمحطة المترو وعندما استدرتُ عائداً ركب معي فتى من سنِّي، كان يريد أن يذهب لمنطقة المحولات، وقال سأدفع ثلاثين جنيهًا فقط، لم أتناقش معه، أخرج علبة سجائره ومدَّ يده بسيجارة لي، رفضتُ شاكرًا بأنني لا أدخن، إجابتي صعقته، لم يكن يُصدق أنه يوجد سائق توك توك لا يدخن. كما قال، لكنه صمَّم أن أخذها، أخذتها منه شاكرًا، ووضعتها في جيبي، ثم بعد مدة انطلقت منِّي ضحكة قوية، وقد تذكرتُ ما حدث معي ذات يوم، أخرجت السيجارة من جيبي ووضعتها في صندوق إيراد التوك توك. أضحك وأنا مُنطلق بالتوك توك، بينما الفتى ينظر لي صامتًا.

خشيتُ أن أنسى السيجارة كما حدث من قبل، تذكرتُ أنني لم أجرب تدخين السجائر مثلما فعل كثير من الرفاق في الفصل، نعتوني حينها بالجبان، والمتخاذل، لكنني صممتُ ألا أضع سيجارة في فمي، حتى حسام جرب التدخين وقال لي إنك لست رجلاً، الرجال يجب أن تجرب وتدخن، وأكمل؛ «إذا استطعت أن تُخرج الدخان من فتحتي أنفك، فهذا معناه أنك أصبحت رجلاً».

في هذا اليوم غضبتُ من حسام جدًّا، أعطاني سيجارة وعلبة كبريت، وتركها لي، وكان يضع في فمه كميةً كبيرة من لبان النعناع حتى لا يشم أحد رائحة فمه عند عودته للبيت، أعطاني قطعة لبان أنا أيضًا.

على السطح، كنتُ أفكر فيما قاله حسام، تركت السيجارة في جيبي وعلبة الكبريت، وأكلت النعناع وانشغلتُ بفتح الغيَّة لإطلاق سراح الحمام، عندما هبطت لشقتنا، وضعت لي أُمِّي الطعام أنا وأختاي

وجدتي، وجلستُ أشاهد مباراة كرة قدم في التلفزيون، كانت المباراة سيئة جدًّا، وهذا ضايقني، ثم خلعتُ ملابسني ونمت.

في الصباح عندما استيقظتُ وفتحت عيني، لم أر ضوء الشمس أو صور محمد صلاح كما اعتدت، وجدتُ أمي جالسةً على طرف الكنبة أمامي وفي يديها السيجارة وعلبة الكبريت، ونظراتها الحادة لي، نهضت وقد فهمتُ ما دار في عقلها، حاولت أن أطمئنها، لم تعتدُ أمِّي ضربي، لكنها غضبت منِّي، وقالت لي كلمة لم أنسها بعد ذلك «اهتم بصحتك فهي أعلى شيء في الحياة، إذا أردت أن تشرب السجائر.. هذا شيء يخصُّك.. لكن عندما تستطيع أن تأتي بثمانها. المهم أن تحافظ على صحتك».

لم أستطع أن أنسى ملامح وجه أمي في هذا اليوم، كانت قريبةً من ملامح محمد صلاح في الإعلان وقد كتب أسفله «أنت الأقوى».

لم أفكر في التدخين مطلقًا بعد ذلك. فطريق الرجولة له كثير من الأبواب من المؤكد ليس تدخين السجائر منه.

عندما هبط الفتى وأعطى لي النقود، وقف وقد أشعل سيجارةً أخرى وأشار لي مبتسمًا وانصرف، ظللتُ أتابعه للحظات، ثم فتحت صندوق الإيراد ووضعت فيه النقود، ثم أخرجت السيجارة منه وألقيتها على أرض الشارع.

## الفصل الثالث عشر

### الرجال لا تبكي

طريق أسرتي مرصوفٌ بالعقبات، صغيرها وكبيرها، وتجاهد أُمِّي للقفز على كل عقبة بمهارةٍ متسابقةٍ تجيد الحياة، فعلى مدى الأسبوعين التاليين. استطعتُ أنا وأُمِّي أن نُدبر جزءًا من مبلغ الدين، ونقوم بإعطائه للمعلم أبو أيمن، وقد كان غاضبًا من قُدرتنا على السداد.

أخذته، وطلبتُ منه أُمِّي كمبيالتين، وتبقي أكثر من عشرين كمبيالة. ابتسم في ضيقٍ مُمسكًا بباقي الكمبيالات وهو يطرق بها طرف مكتبه. مرسلاً نظراتٍ يتوعدنا بها بأننا لن نستطيع سداد الباقي، فقد اقتربت نهاية الشهر.

كانت أُمِّي هادئةً جدًّا، لم تُقَطِّبْ أو تغضب عندما أخبرها بباقي الدين، قالت له: «الشهر لم ينتهِ بعد.. ربنا معانا».

بدأ يُراودني الأمل أن الأسوأ قد انقضى. وبدأ على أُمِّي السعادة وهي تنظر لأبو أيمن، فهي لا تُريد أن تنحني أو تنكسر أمام هذا الإعصار، وسوف تخرج منه بسلام. نهضنا أنا وهي وخرجنا من محله، بينما نشعر بالنيران التي يشتعل بها قلبه حينها.

اتجهت أُمِّي إلى مكان عملها على فرشة العيش، وانطلقتُ أنا بالتوك توك، ولم يُصادفني زبائن كثيرة في ذلك اليوم، نتيجة كثرة كمائن الشرطة التي أغلقت كل الشوارع الرئيسية، بسبب زيارة الثقافة لأكاديمية الفنون، وهو ما جعلني أعود للبيت في منتصف النهار.

وجدتُ البيت خاليًا، جدتي ذهبت لزيارة جارة لنا في بيتٍ قريب بالحارة، وأخذت أختي نورهان معها لتستند عليها، كما أن ابنتها صديقة أختي نورهان في المدرسة، وأختي وفاء ذهبت للمذاكرة عند زميلة لها؛ فرغم أننا في فترة الصيف فهي تستعد للثانوية العامة بكل قوة.

لم يكن في البيت إلا أُمِّي بمفردها، كانت قد باعت حصتها الصباحية من الخبز وعادت للبيت. لإنجاز بعض الأعمال فيه.

استقبلتني بابتسامتها المعهودة، هزرتُ رأسي مُلقياً عليها السلام، واتجهت للغرفة الأخرى، فتحت التلفزيون وجلست أشاهد مباراة كرة قدم مسجلة بين فريقَي «مانشستر يونايتد وليفربول» كانت المباراة مُدهشة وعظيمة، خاصة أن صلاح يلعب أمام غريمه «ميسي»، وقد أحرز فيها محمد صلاح ثلاثة أهداف من الخمسة التي مُنيت بها شباك «مانشستر».

ظلمتُ أُمِّي في القنوات وكأنني أهرب، خشية أن يراني «مو صلاح» في هذه الحال البائسة، بعد لحظات عادت أُمِّي بطبقٍ به بعض الباذنجان والفلفل والبطاطس المقلية، صنعته على عجلٍ لي؛ «أعرف أنك جائع، تفضل».

أمسك يدها، تبدو عند لمسها دافئة ورطبة، أقبلها في حنان: «شكرًا لك يا أمي»، أقول لها ذلك وأنا أبعد الطبق من أمامي وأخبرها بأنني لست جائعًا.

تقترب مني أمي وتجلس، تُربت على كتفي وتأخذ رأسي في صدرها وتقول لي: «أنت رجل، والرجال يجب أن تأكل كي تستطيع إكمال عملها».

أضحك، والدموع تسيل من عيني على خدي وتسقط على ذراعها الذي يلفُّ جسدي الصغير، وأتذكر كلمة أنني أصبحت رجلًا، قالت: «الرجال لا تبكي.. امسح دموعك يا حمامة، وتناول طعامك، فالرجال لا يبكي مهما حدث».

أشعر بالاطمئنان مع كلامها، أسحب جسدي من حُضنها، وأمسح عيني بظهر يدي، وأبدأ تناول الطعام بنهم، لقد كنتُ جائعًا حقًا. أكلُ رغيفي الخبز بعد أن وضعتُ فيهما البطاطس والباذنجان ورششتُ الملح عليهما، كنتُ أبتسم.

تناولت أمي الريموت كنترول وأعادت المباراة مرةً أخرى، كان «محمد صلاح» قد أحرز الهدف الثاني ومُتألقًا بشدة، نهضت أمي واتجهت ناحية المطبخ وفتحت الثلاجة وأخرجت منها ثلاث ليمونات وقامت بصنع كوبين من الليمون، لي ولها، وقد أكثرت من السكر وعادت وهي تحمل كل كوبٍ في يد، وضعت الكوب أمامي وكنْتُ قد اقتربتُ من الانتهاء من تناول طعامي، وقالت لي: «خذ، الليمون صحة وشفاء»، كنتُ أكلُ وقد وقف الطعام في حلقي، خبطتني على ظهري ثم نهضت وناولتني كوب ماءٍ كي لا أختنق بينما هي تضحك.

بعد الأكل، أخرج من جيبي كميةً من النقود، لم أكن أعرف عددها، جلست أمي تُحصي النقود، ثم نظرت لي نظرةً وهي مقطبة وجهها، هزرت لها كتفي: «لم أحقق ربحًا جيدًا اليوم يا أمي.. يجب العمل عدة ساعات إضافية حتى أستطيع أن أشعر بالإيجاب من عملي.. وكي نتخطى قيمة إيجار التوك توك حتى نجد ربحًا لنا». ابتسمت وهي تهزُّ رأسها.

عدتُ لمشاهدة المباراة مرةً أخرى، أتابع صلاح وهو يتألق بقوة ليحرز الهدف الثالث، لم أكن أخشى أن يطلَّ علي، فظللتُ جالسًا إلى أن تمت إعادة الأهداف في البرنامج التحليلي، أهداف عظيمة في مباراة هامة. أشعر بحماسٍ شديد وكأنني أنا الذي أحرزت تلك الأهداف، أخذت كوب الليمون وشربته على ثلاث مرات، وأنا أضحك وأخبرها أنني يجب أن أخرج لإكمال العمل على التوك توك، فقد اقترب وقتُ الذروة وعودة الكثير من الناس من أعمالهم، أفتح باب الشقة وأصيح لها مبتسمًا: «وداعًا يا أقوى أم في العالم».

## الفصل الرابع عشر

### خير.. اللهم اجعله خير

-الرسائل لا تأتي لنا إلا نادراً.

آخر رسالة جاءت لنا كانت برفقة رجل عمل مع أبي في ليبيا منذ أكثر من عام ونصف، أتذكرها جيداً، كنا في فصل الصيف، وكنت قد نجحت في الصف الأول الإعدادي، الرسالة عبارة عن حقيبة كبيرة بها كثير من الملابس لجميع أفراد الأسرة ومبلغ من المال، من ضمن ما أرسله لي والدي «تي شيرت» لنادي ليفربول لونه أزرق عليه رقم 11، إنه رقم محمد صلاح المميز، كان التي شيرت مُبهراً حقاً، عندما ارتديته بدا مُتسعاً عليّ، ضحكّت حينها أُمي وأختاي عليّ بشدة، استطاعت جدّتي في هذا اليوم أن تقوم بضبط مقاسه عليّ بمهارتها الكبيرة في حياكة الملابس.

في هذا اليوم وبعد أن ارتديتُ التي شيرت، ظللتُ واقفاً على السرير وسط الغرفة أسمع هتاف الجماهير باسمي:

-مو حمامة.. مو حمامة..

شعرتُ حينها بأن والدي لم يرسله لي كمكافأة للنجاح، ولكن لأظلل مُتمسكاً بحلمي أن أصبح لاعب كرة شهيراً.

\*\*\*

في عصر ذلك اليوم، جاء رجل قصير القامة يقود دراجة بخارية، يبحث عن بيتنا، وترك لأُمي ورقةً صغيرة يُخبرها فيها أن تذهب لقسم شرطة الخليفة في العاشرة من صباح الغد. عندما عادت أُمي بعد بيع حصتها من الخبز، شعرتُ برجفة في جسدها حينما أخبرتها أختي «وفاء» بأمر الرجل والورقة.

حاولت أُمي أن تفهم ما الذي يحدث، وما السر في تلك الورقة، لكن أختي وفاء لم تُخبرها إلا ما قاله الرجل، وما هو مكتوب بالورقة.

شعرت أُمي بالخوف، وتذكّرت الحلم الذي حلمته منذ عدة أيام، في الحلم هاجمها كلب وهي عائده للبيت وكانت تحملنا أنا وأختي علي رأسها، خطف منها الكلب أختي وفاء رغم محاولاتها المُستمرة لإنقاذها. نهضت أُمي من الحلم وهي تصرخ، صرخة جعلت جدّتي في الصلاة تنهض من على الكنبه وهي تقول: «خير اللهم اجعله خير».

شعرت أُمي حينها بأن شيئاً سيحدث، وأن حدثاً عظيماً سوف يأتي لأسرتنا الصغيرة، وأن القارب الذي تقوده مُعرّضٌ إلى الغرق أو إلى موجةٍ شديدة لا يستطيع تحمّلها. لم تُكمل أُمي نومها في تلك الليلة.

ظللنا طوال هذا اليوم نفكر ماذا يريدون من أمي في قسم الشرطة، وشعرت بأنه يوجد شيءٌ خطير في انتظارها. وأن المعلم «أبو أيمن» قد بدأ بشنّ الحرب على أسرتنا، بتقديم محضرٍ في أمي بأحد إيصالات الأمانة، هكذا فكّرنا جميعنا، لكن الحيرة زادت لأننا لا نتبع قسم شرطة الخليفة البعيد عن مسكننا. وليس قسم الطالبة الذي نقع في دائرته.. ماذا يحدث؟

لم نأكل أي شيءٍ في ذلك اليوم، حتى أختي نورهان التي تُحب الأكل وتتعارك عليه وتقضي معظم وقتها في المطبخ، لم تأكل غير سندوتش بطاطس أفرغت عليه كيسين كاتشب صغيرين، وظلّت جالسةً تُشاهد المسلسل الذي تتابعه دون أن تركز أو تتحدّث مع أختي وفاء، كما لم تتجاوب مع القط «حمامة» أثناء محاولته اللهو معها.

في تلك الليلة اخترق مواء القط حمامة صمت الليل فجأة. استيقظت على موائه، أسمع صوت أختي نورهان تهمس لوفاء قائلة: «إن حمامة يشعر بالخوف».

الخوف سار في جسدي كله، جعل عمودي الفقري وكأن أحداً قد أمسكه بشدة، ضغط عليّ وشعرت حينها بأنني عاجز تماماً، لم أكن أعرف أن الخوف يمكن أن يُسبب هذا الألم الشديد، الخوف من أشياء لا تستطيع الهرب منها أو المراوغة كما أفعل في كرة القدم.

في تلك الليلة جاءني كثير من الكوابيس في نومي المتقطع، وكنتُ كلما شددتُ على جسدي الغطاء، أشعر بأن الخوف يزحف عليّ من الجهة الأخرى، رغم التصاق جسدي بالحائط لكنني ظللتُ خائفاً.

في الصباح أرافق أمي في أول زيارة لي في حياتي لقسم شرطة الخليفة. ويالها من زيارة! في العاشرة تماماً قدّمنا الورقة للعسكري الواقف على الباب الخارجي للقسم، نظر فيها، ثم أشار بذراعه اليمنى، قائلاً: «محمود بيه.. الدور الثاني».

كنتُ مرتبكاً بشدة أنا وأمّي، نُمسك يدي بعضنا، نضغطُ أمي على يدي كلما تقدّمنا داخل ساحة القسم الخارجية.

أدخل أنا وأمّي طُرقةً طويلة، نجد في نهايتها موظفاً يجلس خلف مكتب، تتحدث أمي معه، لكنه لا ينظر ناحيتها، يقول: «ماذا تريدان؟» تُقدّم له الورقة، يُمسكها الموظف وينظر فيها ثم يُلقِيها على المكتب، ويطلبُ منها بطاقتها، يتناوَلها منها، يُدوّن بياناتها في الورقة، ثم يفتح باب دولاب صاج ضخم خلفه، ويُخرج دوسيه كبير الحجم، به حزمة من الاستمارات عليها صور شخصية لبعض الأشخاص.

بحث الرجل إلى أن أخرج استمارة عليها صورة لشخص، طلب من أمي التوقيع عليها، ثم نادى على عسكري قائلاً له أن يأتي بشخصٍ اسمه: «حسن عبد السلام سعيد» من الحجز.

كادت أمي أن تفقد وعيها وهي تسمع اسم أبي، تستند على كتفي كي تمنع نفسها من الانهيار، أصبح وجهها أصفر من جرّاء الخوف في لحظة. وتسري القشعريرة في عمودي الفقري، أفكر لماذا أبي في القسم؟ هل عاد من ليبيا؟ هل والدي حي؟

بعد دقائق جاء العسكري وهو يجرُّ خلفه رجلاً يُعطي رأسه وجسده بكوفارته خضراء، شعر ذقنه طويل ويُخفي معظم ملامحه، وشعره الطويل يبدو أنه لم يلمس الماء منذ فترةٍ طويلة. لا يُمكنك أن ترى سوي عينيْن غائرتين سوداوين. وجه الرجل شاحب كشحوب الموتى، وكأنه يبكي، نحيف ويكاد يسقط، ملبسه قذرة، جرّت أمي ناحيته وأنا أيضًا واحتضنناه.

ينهض الموظف ويشير لنا، أهروول أنا وأمّي ناحيته، يسير ومعه الأوراق ونسير خلفه، يطرق باب إحدى الغرف في أدبٍ ويستأذن بالدخول تاركًا الباب مفتوحًا، بعد لحظات يأمرنا بالدخول.

المكتب عظيم، يجلس ضابط خلف مكتبه في بهاء، يُخبر أمي بأن زوجها محظوظ إنه عاد حيًّا من ليبيا، ويُسلمها بعض الأوراق التي قامت السلطات المصرية بعملها لوالدي كهوية جديدة، ويكتب رقم هاتفه على ظهر إحدى الأوراق إذا قابلت أمي أي مشكلات، وأن ما في جسده من تعذيب سوف يتداوى مع الأيام، المُهم حالته النفسية يجب أن يتم ترميمها.

شعرتُ بخوفٍ ورهبةٍ وتراجعتُ مُحتمياً بجسد أمي، لكن الضابط ابتسم، وهو يُقدّم الأوراق لأمي، وكانت هذه أول ابتسامةٍ أراها في هذا المبنى المُخيف.

## الفصل الخامس عشر

### غرفة الدموع

- «الغرفة المحصنة حارة، خانقة، تُولد الخوف وتعطيه لك فلا تمتلك إلا الخوف والمرض، وتضيق عليك إلى أن تُصبح قبرًا.. أن تعيش في هذا الخوف كل يوم، خوف من الخروج من غرفتك فيتم القبض عليك، وبالتالي قتلك، أشياء مهولة تحدث هناك، وما ترونه على شاشات التلفزيون جزء بسيط منها، الحرب شيء لا يمكن أن تصفه الكلمات».

لا يُريد أبي أن يتحدّث عن الحرب هناك في ليبيا، لكننا نُريد أن نعرف ما حدث له، فقد كان تأثير اختفائه علينا قاسيًا، يجلس أبي، وقد اكتسبت عيناه تلك النظرة الباكية البعيدة، التي تملأ وجوه الناس عندما يتحدّثون عن أشياء في الماضي، أشياء مُفزعة لا يجب أن تُروى.. ومهما تم روايتها فإنها لا تُقابل الحقيقة التي حدثت، تحدّث عن أيادٍ مقطوعة، رءوس مُلقاة بالأحذية، دماء، أجساد مُهشّمة ومُحطمة، مبانٍ منهارة، سيارات مُتفحمة.. طلقات الرصاص التي تُطلق في الليل وكأنها نباح كلاب مُستمر.. الحرب شيء آخر لا يشعر بقسوتها إلا من عاشها.

- «حرب لا تعرف من ضدّ من.. ثورة قامت كان ضحيتها وطن كامل، ووسط كل ذلك يجب أن تعمل، ويجب أن تحمي نفسك، إلى أن تمّ محاصرته هو ومجموعة من العمال، كل شيء سُلب منه: النقود وهاتفه وأوراقه، إلى أن تم طلب فدية من الحكومة المصرية للإفراج عنهم، وأنهم ظلّوا محبوسين في قبوٍ لمدة ثلاثة أشهر لم يكن يُلقَى لهم إلا أرغفة خبز جافة.

بيدو والدي عطشان من حكيه عمّا مرّ به، يطلب كوب ماء، تأتي به أختي نورهان سريعًا، خشية أن يفوتها شيء مما يحكيه، لكنّ وجهه يمتلئ بالدموع فور أن يشرب كوب الماء، وينظر للكوب كأنه شيء نادر، يطلّ عليه بأنه شيء ثمين وأعلى من الذهب، يكمل أبي؛ «هناك بسبب الحرب، كان العثور على بعض الماء شيئًا مُستحيلًا، لعدة أيام ندور ونبحث في المواسير أو الآبار على بعض الماء، ماء تضعه في فمك لتستطيع أن تُكمل الحياة، عندما أشاهد أحدًا هنا يقوم برشّ الماء من الخرطوم في الشارع، أبكي، ثم أضحك وأقول: «بلدي مصر وطن عظيم».

يُطلق أبي تهنيدة وهو يتوجّع. وكأنه غير مُصدق أنه عاد لبيته، ولأسرته، يشعر بأنه يحلم، يُحدّث نفسه أحيانًا وهو جالس، يُصدق ما يحدث حوله.

استطاعت أمي أن تُغير من هيئة أبي، قامت باستدعاء الحلاق «أحمد عبده»، قص شعره وحلق ذقنه، بعد أن أجلسته على مقعدٍ في مُنتصف الغرفة، وقد فرشت ملاءة على الأرض لجمع الشعر، كانت جدّتي جالسة على الكنبه تدعو الله وتحبس دموعها، ربما كانت أمي قد أمرتها ألا تبكي، لم يتحدّث أبي حينها، كان كتمثالٍ تاركًا كل شيء بيد أمي، بعد أن انتهى الحلاق من قصّ شعره وذقنه، أعطته أمي مبلغًا مضاعفًا من المال بعد

أن شكرته بشدة، ثم أخذت أبي للحمام، كانت قد أشعلت النيران على حلتين للماء الساخن، ودخلت الحمام وأغلقتة هي وأبي.

خرج أبي من الحمام وقد استردَّ جزءاً من هيئته التي أعرفها، وإن كانت جغرافيا جسده قد تبدلت تماماً، مُنحنيًا للأمام، ويدها ترتعش، وقد نقص وزنه بشكل لافت. ألبست أمي أبي قميصًا نظيفًا وبنطلونًا، وأجلسته بجوار جدتي على الكنبه أسفل النافذة. حينها تحدث أبي، خرجت الكلمات من فمه وكأنه لم يعد يستطيع أن يُحرك شفثيه، قال كلمة واحدة: «جحيم». وأجهش في البكاء.

بكت جدتي بكاءً مرًا وشديدًا، كانت المرة الأولى التي نشاهد فيها دموعها، يداها وهي تتحسّس جسد أبي، لم تُوقفها أي دموع، وبكت أختاي، وكأنها كانتا في انتظار تلك الكلمة، وبكيت أنا أيضًا، والتفنا جميعنا حول أبي، وتحولت الغرفة لغرفة الدموع، الوحيدة التي كانت أكثرنا حُزنًا ولكنها لم تبك، أمي. ظلت واقفةً منتظرةً أن تنتهي من طقس الدموع، ثابتة، وقوية، ثم قالت لأبي: «كفى.. الرجال لا تبكي مهما حدث».

كانت لكلماتها قوة سحرية، انحسرت الدموع في العيون، وتوقفت الغرفة عن البكاء، وقامت بفتح التلفزيون على القرآن الكريم، وقبل أن تتجه إلى المطبخ أخبرت أبي بأنها ستُعِد له طعامًا شهياً يُنسيه كل تلك الأحزان.

\*\*\*

اكتشفت عرج أبي وجسده المُشوّه في اليوم التالي، عندما قامت أمي بمساعدته لدخول الحمام، كان يجب أن تضع بعض الضمادات الجديدة له، وكان جسده به كثير من الندوب، لكنها سوف تتلاشى مع العلاج، وأن علاجها سوف يأخذ وقتًا.

اكتظَّ بيتنا في ذلك اليوم بالكثير من الناس، جاءوا للاطمئنان على أبي، جيران وأصدقاء وأقارب، حتى المعلم أبو أيمن أرسل مع صبيٍّ صغير هديةً عبارة عن حقيبة بها عدة دجاجات مذبوحة. لم يتحدث أبي كثيرًا مع الزوار، ولم يحكِّ عما حدث له في ليبيا، كما لم يسأله الكثيرون عن ذلك، خوفًا على مشاعره، وربما لأنهم يلمسون ذلك في الأخبار التي تأتي من ليبيا في النشرات التلفزيونية. وعندما هدأ البيت، وانفضَّ الجمع، وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية عشرة ليلاً، همست أمي لأبي الراقد على السرير بعملها كباثة خبز وعملي كسائق توك توك، ثم أخبرته بما حدث من المعلم أبو أيمن. وطلبه الزواج من أختي وتهديده لنا.

كان العجز واضحًا في صوت أبي. لم يتحدث كثيرًا ولم يغضب. كل ما أخبر به أمي. أنه في الصباح تُعطيني هديته — حقيبة الدجاج — القابعة في الثلاجة وأن تردّها للمعلم أبو أيمن. شعرت حينها بأن أبي يحاول أن يكون جنديًا في جيش أمي. حتى لو كان مجروحًا أو مصابًا.

في الصباح وقبل أن أنطلق بعلمي على التوك توك، أعدتُ حقيبة الدجاج للمعلم أبو أيمن قائلاً له ما أمرتني به أمي: «شكراً».

بقي أبي طريح الفراش لمدة أسبوع منذ عاد، كانت أختاي وفاء ونورهان ترعيّاه عند غياب أمي، وجدّتي ترعاه بالأدعية، عاد أبي طفلاً صغيراً وهي تتعامل معه، تُطعمه في فمه، وتحتضنه باستمرار.

يقول أبي: إن الكوايسس تهاجمه كلما حاول النوم. صوت طلقات الرصاص والقنابل. يسمع أصوات الجنود أو المرتزقة. يشعر بقربهم. يرتعد خوفاً كلما مرّت سيارة بجوار البيت. يقول إنه يكره الغربية، ويخاف منها. كان يريد أن يموت وألا يُصبح عبئاً على أمي والتي لديها جبل من المشكلات، تُرَبّت أمي على كتفه، تُخبره ألا يحمل أي همّ، وأن الغد والفرج قريب، أهم شيء الآن أنه يجلس ووسطنا ويملاً بيتنا بأنفاسه.

في ذلك المساء، بعض الحقائق تظهر في الغرفة التي ينام فيها والدي، أرهف السمع عبر الباب، ثمة صياح كثير، تُنهي أمي النقاش مع أبي في غضب، يقول لها أبي: إنه أب وزوج، وهي تحمل حملاً ثقيلاً.. تُخبره أمي بأن يترك الحمل لها، وألا يفكر في شيء، لكنه مُصمّم على البحث عن عمل، وهو مُصاب، لكنّ أمي ترفض بشدة.

في الصباح التالي نهتني أمي بما لدينا من أعمال. فقد قاربت مهلة المعلم أبو أيمن على النفاد.

الثلاثون يوماً!!

غرقتُ في العمل طوال الأيام التالية، ولم يكن لديّ مُتسع من الوقت للمشاركة في الكثير من المباريات، في تلك الأثناء، كان حسام يُخبرني بها عندما يلمحني وأنا أقود التوك توك. فأتوقف لحظاتٍ أمامه، وأعتذر له، ثم أنصرف سريعاً خاصة لو كان معي زبائن.

أعمل طيلة النهار على التو توك. وأعود ليلاً مرهقاً. أتناول ما تضعه أمي أمامي من طعام وهي تقوم بإخراج النقود من جيبي وترتيبها، لتفصل نقود إيجار التوك توك عن قيمة قسط المعلم فولة. عما سوف تُدبره لدين المعلم أبو أيمن، وعما سوف تكمل به اليوم القادم.

## الفصل السادس عشر

### مقدر ومكتوب

بقي ثلاثة أيام على مهلة المعلم أبو أيمن، ولم أكن أعرف ماذا سنفعل، واليوم لم يكن يُنبئ بأكثر مما هو مُعتاد منذ عملي على التوك توك؛ الزحام والمعارك والصراخ وجذب الزبائن بالقوة، قررتُ ألا أدخل في أي جدالٍ أو تعارك.

حرارة الجو شديدة منذ الصباح الباكر، جعلتُ الحصول على زبونٍ شيئاً صعباً، فالكثير من الناس لم يُعادروا منازلهم، والأماكن التي يتكاثرون بها لا أستطيع العمل عليها الآن، فكرتُ أن أذهب إلى سوق الخضار، هناك يمكن أن أحصل على زبونين أو ثلاثة في مشوارٍ واحد.

جدال شديد لثلاث نساء، وكلُّ منهنَّ تحمل حقيبة كبيرة، وجميعهن في طريقٍ واحد ولا يعرفنَ بعضهن، هذا مشوار أستطيع أن أحقق مكسباً صباحياً منه، لكن النساء يجلو لها الجدل، فقررتُ أن أتفق معهن منذ البداية، وقبل أن يركبنَ أو أنطلق.

عند إيصال السيدة الأخيرة لوجهتها، طلبتُ منِّي مساعدتها في حمل حقيبة الخضار وتوصيلها لشقتها في الدور الثالث من إحدى العمارات.

لم أستطع رفض طلبها، ابتسمتُ لها، وحملتُ الحقيبة وهي تدعوني بالصحة والفلاح، كانت السيدة عجوزاً وتسير بمساعدة عكّاز، عندما أوصلت لها الحقيبة، أعطتني أجرتي وثلاثة جنيهات إضافية نتيجة حملي حقيبة الخضار لها، شكرتها رافضاً، فلم أخذ منها إلا أجرتي، ظلتُ تدعوني وأنا أهبط سُلّم بيتها سريعاً. عند خروجي من باب البيت، لم أجد التوك توك، سرق، اختفي، تلاشى في لحظات.

صرخت، وركضتُ في كلِّ اتجاه، لا أعرف كيف كانت قدمي تتحرك، كانت ثقيلة ومع ذلك تتحرك في خفةٍ بسبب الخوف المسيطر على كل جسدي.

أخرج من الحارة التي هبطتُ منها السيدة، أركض بسرعة الريح، وكأنه يُوجد لاعب اسمه — الخوف — يجري خلفي ويجب ألا يلحق بي، أو أتخطّاه بسرعةٍ قبل أن يُعرقلني وقبل أن أحرز هدفاً، لكن لا يوجد مرمى أمامي، أمامي ميدان فسيح مكتظ بالناس، والعربات والتكاتك، أفق أمام المركبات وأطلُّ فيها، أتفحصها، وأشعر بأن كل التكاتك في الميدان أصبحت التوك توك المسروق، لكن لا يُوجد بينها التوك توك المميز بصورة محمد صلاح، بعض قائدي التوك توك شتموني، وأحدُهم دفعني بيده في صدري بعد أن وقف معتقداً أنني أريد الركوب، فلم أكن أفعل شيئاً إلا النظر بداخل التوك توك.

ظلتُ أركض بسرعةٍ شديدة وأنا أتخبّط في الزحام، أفتش كل توك توك تقع عيني عليه، لا أعرف ماذا أفعل، ولا إلى أين أذهب، ربما كانت قدمي تعرف إلى أين تذهب، بيتنا، لا أعرف كيف وصلت!، فالمسافة

كانت بعيدةً بين بيت السيدة وبيتنا، لكنني في النهاية وجدتُ نفسي داخلًا فوهة بيتنا بقوة، وكأنني كرة قدم أطلقتها لاعب وتعرف الطريق جيدًا إلى المرمى.

أطرق باب شقتنا بقوة، أندفع مذعورًا، أنهار وألقي بوجهي فوق الكنبه بجوار جدتي التي تُصاب بالفرع، وأمي تأتي في دُعر، تصرخ قائله؛ «حمامة، حمامة.. ماذا حدث»؟

تتلاحق أنفاسي بقوة، لم أعد أستطيع التنفس، أدفن وجهي في حضن جدتي من شدة الرعب، أبكي بقوة، الكلمات المَهشمة تخرج من فمي: «التوك توك سُرق يا أمي».

تصرخ أمي، وترفع ذراعها لأعلى وتضرب رأسها بشدة، ثم تنهار باكيةً على طرف السرير. صرخات أمي كان يمكن أن تسمعها من أول الحي. بكاء أختي. صمت جدتي. عيني أبي الممتلئة بالدموع وفمه العاجز عن الكلام، القَط «حمامة» وهو يُجربش بأظافره في السجادة القديمة على الأرض.

تجمّع الجيران وبعض المارة في الحارة على صراخ أمي، وأنا لا زلت دافئًا وجهي في حضن جدتي. جسدي كله يرتعش، أجلس مُنكمشًا أتخيل العواقب السيئة لفعليتي، ضياع أسرتي، حبس أمي، زواج أختي بالقوة من المعلم أبو أيمن، طردنا من البيت، نقود الحاج فولة التي يجب سداده، لم أستطع التفكير فيما يمكن أن يحدث لأبي الراقد وجدتي الداعية وأختي نورهان، والقَط حمامة، ما مصيره الآن؟ سيلقى في الشارع، سنحزن عليه خاصة أختي «نورهان».

شعرت حينها بأنني في كارثة، وأن كل ما يحدث ربما يكون كابوسًا. لكنني ظللتُ جالسًا مُنتظرًا ما يحدث، فوقنا مروحة السقف تعمل دون هواده، لكنها لا تستطيع أن تُهدئ من الخوف والحزن الذي بداخلنا. ظلّت جدتي تُردد: «خير.. مقدّر ومكتوب.. كله مكتوب.. خير».

هذا الهدوء الذي يبدو على جدتي. من أين لها بهذا اليقين بأنه خير، رغم البئر العميقة التي نهوي فيها بسرعة رهيبه؟

سعل أبي بقوة، كان يبدو كشيح مُمدّدٍ على الكنبه، وعيناه ممتلئة بالدموع، حزينًا على نفسه، وعلى مصيره، وعلى أسرته التي أوشكت على الضياع.

من الظهر للعصر لم يكن يوجد شيء في استطاعتنا إلا البكاء.

\*\*\*

بالطبع لم تكن أمي أفضل أمّ في العالم، لكنها من أقوى النساء بالتأكيد. نهضت أمي، ووقفت في منتصف الغرفة، وكان يبدو لي أنها اتخذت أحد أهم القرارات في حياتها، وضعت الطرحة على رأسها، وقالت: «الآن سوف نقوم بتمشيط كل مكانٍ بحثًا عن التوك توك المسروق.. ولن نعود إلا وهو معنا.. إنه حقنا، هيا يا حمامة. كفي بكاء».

أهزُّ رأسي لأمي، أريد أن أطمئنّها، وهي تريد أن تعثر على أي قشةٍ للنجاة أمام الموجة العاتية التي تضرب أسرتها.

في تلك الأثناء، تتحدّث أختي وفاء، تبدو ثابتة في كلماتها رغم الدموع التي تملأ عينيها. نُخبرنا بأنها موافقة على الزواج من أبو أيمن، وتبدأ في طرح مميزات تلك الزيجة، بأنه سوف يجعلها تُكمل تعليمها، وأنها ستُصبح ملكة متوّجة في بيته، وتصمت لحظاتٍ وهي تحاول أن تُجفف دموعها بيديها، قبل أن تكمل: «وهذا هو الحل الوحيد لإنقاذ الأسرة من الكارثة التي حلّت علينا».

تحتضنها أمي، وتنفجر الاثنتان في البكاء، وجسدهما يرتعد من شدة الخوف، ثم تنظر أمي لي كي أرافقها في الخروج قائلة: «هيا يا حمامة».

## الفصل السابع عشر

### بداية الرحلة

ببراءة طفلٍ في الرابعة عشرة من عمره أقول:

- «يجب أن نذهب إلى الشرطة».

- «هل فقدت عقلك؟ ألم تتعلم أي شيء في هذه الحياة؟ مهما حدث لك، لا تذهب إلى الشرطة مُطلقاً، سوف يقولون إنك السارق، وسيتم حبسك ووضعك في السجن، أنت الآن مُتهم، هل تعتقد أن الشرطة سوف تخرج كي تبحث لك عن التوك توك الذي سُرِق منك؟ لماذا تعيش في الأحلام، اهبط وِسِر على الأرض واطرِك السماء للحمام الذي كنت تربيّه».

تسري الرعشة في جسدي حين أسمع هذه الكلمات، أُمسك بيد أمي بقوة.

كانت هذه كلمات الأستاذ «أحمد الشاذلي» المحامي، الذي لجأنا إليه لمساعدتنا، كلماته وضعتنا في حيرةٍ كبيرة، ولم نكن نعرف ماذا نفعل.

بعد لحظات، جاء الحاج فولة؛ صاحب التوك توك، ولا أعرف كيف علم بسرقة، جاء حاملاً في يده إيصال الأمانة الذي وقَّعت وبصمَّت عليه أمي، جلس غاضباً، وحاول الأستاذ أحمد أن يهدئ من ثورته، لكنّه هدّدنا أنا وأمّي بأننا مُلتزمان بدفع ثمن التوك توك كاملاً أو العثور عليه حتى لا يلجأ للشرطة. وترك المكتب وخرج غاضباً، وقد أمهلنا يومين لعودة التوك توك.

يومان..

مُحاصران أنا وأمّي، المعلم أبو أيمن بطلبه يد أختي وفاء أو طردنا من البيت وسداد ديونه، والمعلم فولة بإيصال الأمانة بقيمة التوك توك، ومرض أبي الجالس في البيت عاجزاً.

خشيتُ أن أنظر لأُمّي، فأنا السبب في هذه الكارثة الجديدة التي وقعت على رأسها.

ابتسم الأستاذ أحمد، وهو يُخرِج ورقة صغيرة، وكتب فيها اسم شخص، وطلب منّا أن نذهب إليه سريعاً، كانت الورقة وأمّي تُمسك بها كأنها طوق نجاة، وعندما أخبر أمّي بالعنوان ذكَّرها بأن تُخبر هذا الشخص أنها قادمة من عند المحامي؛ أحمد الشاذلي.

لم يكن بالورقة إلا اسمٌ غريب لم أسمع من قبل، ربما يكون اسماً نادراً ومتفرداً أيضاً.

«سيد أيايا».

منذ خروجنا من مكتب الأستاذ أحمد الشاذلي المحامي، تُمسك أمي يدي بقوة، تُشبِّك أصابعها بأصابعي وأشعر بانتقال عجب للقوة، أشعر بتوحدّها معي، وأنها تريد الأمان أيضاً، وأن تشعر بأنها ليست بمُفردها.

ظللنا نسير أيدينا في يد بعض إلى أن خرجنا من الحي، وأشارت أمي لتوك توك قائلةً له: المنيب.

كنا نعتقد أن العثور على «سيد أيايا» صعبًا، لكننا وصلنا له بسهولة، المكان عبارة عن بيت من طابقين في منطقة ريفية، وكان الرجل يجلس أمامه.

عندما اقتربتُ منه أنا وأمّي، شعر الرجل بالقلق وهو ينظر لنا، بسرعة أخرجتُ أمّي الورقة التي كتبها المحامي «أحمد الشاذلي» وقدمتها له، وأخبرته بهدفها، وأكملتُ أنا ذاكراً مواصفات التوك توك المسروق، ابتسم الرجل وشعر بالراحة بعد أن أطلّ في الورقة، أخبرنا أن ما جاء له اليوم من إيرادٍ ليس به شيء من صفات التوك توك التي ذكرناها.

قال الرجل بخبرة «إذا سُرِق صباحًا، سوف يُباع ظهرًا، وتتغير علاماته المميزة عصرًا. ويُصبح توك توك مُختلفًا ليلاً».

علمت الآن مهنة الرجل، إنه تاجر يشتري التكاتك المسروقة، ويبيته عبارة عن مخزن يتم تجميع التكاتك المسروقة فيه، ويتم تغيير ملامحها وتبديلها، لتُصبح جديدةً تمامًا.

ظل «سيد أيايا» ينظر لنا وقد شعر بالعجز الذي يُرافقنا، والخوف الذي كان في عيوننا، فأخبرنا أن آخر أمل لنا في العثور على التوك توك هو الذهاب إلى «سوق الجمعة» غدًا صباحًا، فهذه فرصتنا الأخيرة، قبل أن يتلاشى تمامًا. ويتبخر الأمل لدينا في العثور عليه.

لا أدري كم من الوقت مرَّ وأنا أمسك بيد أمّي بعد خروجنا من عند بيت «سيد أيايا». فلم تُفارق يداها يديّ، وكأننا مُتهمان وقد وضع في أيدينا القيود، قيود غير مرئية، فأنا وأمّي أمام المجتمع الآن مُجرمان، شريكان في جريمة ضياع التوك توك، جريمتي أنني فتىّ يحلم بأن يصير لاعب كرة شهيرًا كمحمد صلاح، وهو حلم يكاد يعصف بي وتسبب في كارثة لأسرته، وجريمة أمّي أنها وقعت على الأوراق.

«يُمكننا الآن أن نمشط كل منطقة، كل أحياء القاهرة»، تقول أمّي.

أهز رأسي لتأكيد كلامها، وننطلق، وسط الأضواء التي أغرقت كل الشوارع حولنا، لكن وسط تلك الأضواء لم نعر على ما نبحت عنه.

رحلة البحث لم تكن مُستعدين لها، والنقود التي كانت مع أمّي قليلة، وتكاد تنفذ في المواصلات التي نستقلها في عملية البحث، تاكسي، توك توك، ميكروباص، ولم يكن معي أي نقود، فقد سُرِق التوك توك بحصيلته اليومية.

أرهقت أقدامنا من السير بحثًا عن التوك توك في جميع الأحياء والشوارع والميادين بالقاهرة، ولم نُعد قادرين على التحمّل وقتًا أطول.

عند أول حديقة استقبلتنا، ألقينا جسدنا، وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

خلف إحدى الأشجار توارينا، ننكمش خوفًا كلما اجتازت سيارة شرطة المكان، إحساسنا بأننا مطاردان ومطلوب القبض علينا لضياع التوك توك، الخوف أفقد قدرتنا على النوم، رغم التعب الشديد الذي حطَّ على

جسدنا.

تُفكرُ أمي بأن الذهاب لسوق الجمعة في الصباح الباكر لا يفصل بيننا وبينه إلا ساعات قليلة. وكنتُ أنا أفكر في الأكل. فلم نضع شيئاً في بطوننا منذ الصباح. ربما نسينا الأكل من شدة الخوف. لكن بطني كان يصرخ بالجوع وبالتأكيد بطن أمي.

أمامنا ميدان به عمارات شاهقة، على إحداها لوحة إعلانات ضخمة يظهر فيها وجه محمد صلاح، الإعلان عن هواتف محمولة، وابتسامته تأخذ المساحة كلها، يتسّم وينظر لي كعادته في كل صورة، كنتُ أفكر بماذا يُخبرني؟ هل هي ابتسامة سخرية؟ وأني لن أستطيع أن أصير مثله؟ أم هي ابتسامة اطمئنان وتشجيع؟ حاولت تجاهل نظراته في الإعلان، لكن في الجهة الأخرى كانت صورته معلقة وقد رسمها مشجع ووضعها في شرفة بيته، كان الرسم غير متناسقٍ لكن الابتسامة واضحة. في النهاية ابتسمتُ له.

قالت أمي: «لم تبسم؟»

أخبرتها بأنني أردتُ الابتسامة لصلاح.

بدموعٍ تفيض من مُقلتيها ابتسمت هي الأخرى.

أنهض وتنظر لي أمي نظراتٍ متسائلة، أخبرها بذهابي لشراء شيءٍ ما والعودة سريعاً، تعلم أمي أنني أكذب، فلم يكن معي أي نقود، لكنها صمتت.

كنت أفكر كيف يمكن أن أحصل على طعام مجاني في هذا الوقت.

في الإعلان أصابع صلاح تُشير تجاه شيءٍ ما، بالقرب كان الزحام الشديد لأحد المحلات للوجبات الجاهزة، لم تكن إشارة محمد صلاح لي حينها إلا على صندوق القمامة الكبير ذو الغطاء البلاستيكي بجوار محل الوجبات الجاهزة، هنا يمكن أن أجد طعاماً أو بقايا طعام من إحدى العائلات التي تزحم المكان.

أقترّب من الصندوق ذي الغطاء المتأرجح، أنظر حولي وأخشى أن ينظر لي أحد من الزبائن، كان الصندوق في ممرٍ جانبي خالٍ من الناس، ولم يكن أحدٌ ينظر ناحيتي، فالجميع منشغل بطعامه وصخبه، وبسرعة خاطفة، فتحت الغطاء وألقيت بنصف جسدي فيه مُلتقطاً أثقل كيسٍ ورقي عليه علامة محل الوجبات الجاهزة، أدس يدي بسرعة في الكيس وأفتحه، أجد فيه كوبين من البيسي مُمتلئين وما يزال الثلج فيهما، وبعض أصابع البطاطس المقلية وسندوتش شاورمة كبيراً كاملاً لم يمسه أحد وبقايا سندوتش آخر من الفراخ، أتناول كيساً آخر أجد قطعتي هامبرجر كاملتين، وبقايا ثلاث قطع وقطعتي خبز سليمتين، أضع قطع الخبز والهامبرجر والسندوتش وكوب بيبي في كيس واحد. أما بقايا السندوتش وبقايا الهامبرجر فلا أمد يدي ناحيتها.

أخرج من الصندوق حاملاً الكيس بيدٍ متظاهراً بأنني خرجتُ بعد شرائه من المحل، وفي اليد الأخرى كوب البيسي أشرب منه، أعبّر الطريق ناحية الحديقة وأطلُّ على الإعلان، لا تزال ابتسامة محمد صلاح

تُتابعني، وإن كانت عيونهُ تلمع الآن. أهز رأسي له، شاكرًا وأنا اتَّجِه للمكان الذي تخنفي فيه أمي. أُخرج لها الطعام، ونقتسمه، تنظر لي ولا تتكلم فقد بدأت في الأكل، ثم أُخرج لها كوب البيسي، حينها ابتسمت أمي.

لا أتذكّر متي نمتُ أنا وأمي، أتذكر فقط ما حلمت به، في تلك الليلة حلمت بأنني ألعب مباراةً هامة، لكن لم أستطع إحراز أي أهداف، رغم أن المرمى خالٍ، في نهاية الحلم اكتشفتُ أنني بدون ساقين. استيقظتُ من نومي على أول شعاعٍ للشمس يداعب عيني، غارقًا في العرق وأنفاسي متقطعة، وكأنني كنتُ أجري، أمدُّ يدي أجد ساقَيَّ وقدمَيَّ. حينها تهدأ أنفاسي، أنظر ناحية أمي أجدها مُستيقظة، وتنظر لي مبتسمة.

## الفصل التاسع عشر

### سوق الجمعة

وكأننا نُشاهد فيلمًا بالألوان، الشمس ساطعة في حدة، والسماء خالية من الطيور، والجو مُمتلئ بالغبار، وعلى الأرض الهواء فاسد، مختلط بعوادم السيارات والتكاتك ورائحة الزيت وأبخرة وروائح الطعام المختلفة التي تملأ المكان.

السوق عبارة عن ساحةٍ عظيمة وقف بها مئات التكاتك وكل مجموعة قد اصطفت كأنها مجموعة من الجياد في سباق، ضجيج الزحام في سوق الجمعة لا يمكن وصفه. يبدو ككرنفالٍ من الألوان والزحام والسباب والمُشاجرات والمُساومات. فالسوق هو المكان الذي يفرغ فيه اللصوص حصيلتهم، ليس جميعهم، لكن أكثرهم يبيعون أشياءهم هنا. من يريد شراء إكسسوار وقطع غيار منخفضة الثمن، ومن يريد أن يبيع توك توك مسروقًا، ومن يريد استبدال توك توكٍ بآخر، يبدو الناس على عجل، وكل شخصٍ مُحدّد هدفه، الوحيدان اللذان لم يكن لهما هدف، أنا وأمّي.

نشعر بالارتباك ونحن نسير في السوق، ننظر في كل اتجاه، لعلنا نجد التوك توك المسروق، أو أي شيءٍ قريبًا منه، يتشابه الكثير من التكاتك، وأنا وأمّي نسير، في خوفٍ كبير، أقدامنا تؤلّنا، ونشعر بثقلٍ كبير على أكتافنا، لكننا ننظر لعلّ المعجزة تحدث.

قضينا ساعات النهار في السوق بحثًا عن التوك توك، نتعرّض أحيانًا ونصدم في الناس أحيانًا، ونتحاشى أن ننظر لبعضنا. لكن أيدينا متشابكة.

كسُمكتين يخرجان من مياه البحر ولا يعرفان الطريق، كنتُ أنا وأمّي نخرج من السوق عندما بدأ كل شخصٍ يجمع أشياءه، خلال تجوالنا، ظلت أمّي صامتة، يمكنني أن أرى الكارثة في عيونها، في زاوية عينها أثر للدموع، لكنها لا تُريدني أن أراها، أطلُّ في الاتجاه الآخر حتى لا أزيد من أحزانها، تصطدم عيناها بالمسجد الكبير الذي يستقبلنا، مسجد السيدة عائشة، أشعر بأن المسجد يفتح ذراعيه لنا، أطلب من أمّي أن نذهب له، تنظر أمّي إليّ، إلى حالتي المُزرية، تُربّت على كتفي وتهز رأسها بالموافقة.

عند اقترابنا من المسجد، جيش من المُسولين يتحركون في كل مكان، نساء برفقتهم أطفال مُتسخون، يلتفون سريعًا حول أي زائر، خاصة إذا كان يحمل حقيبة أو سلة كبيرة أو يدُلّ ملبسُه على يُسر الحال. لم يعترض طريقنا أحد من جنود هذا الجيش، فقد كان يبدو علينا بأننا لا نمتلك أي شيء.

استقبلتنا الغرفة الكبيرة للضريح، لم تكن مزدحمةً في ذلك الوقت. رائحة البخور والضوء الأخضر الصاعد من قلب الضريح، جعلني أشعر بطمأنينة لم أشعر بها من قبل. اندفعت أمّي وأمسكتُ بيدها بقوة في أعمدة الضريح الفضية. تُقبله بقوة وشغف. تضع رأسها على حوافه الخشبية، وكأنها تريد أن تُلقي بكل همومها ومصائبها دفعة واحدة، وأنا أقف لا أعرف ماذا أفعل، فقط اتجهتُ وجلست على الأرض في أحد

الأركان، مستندًا بظهري على الحائط المقابل للضريح، أمامي صندوق خشبي ضخم بجوار الضريح مُحاط بسلسلة حديدية من المنتصف خشية السرقة. يقف بجواره رجل ضخم يرتدي جلبابًا وشالًا أبيض على رأسه، يبدو أنه لا يفعل شيئًا سوى حماية الصندوق.

عيناى تُفتِّشان المكان في حيرة وقلق، بجواري رَجُلان وامرأتان. يبدو أنهم من الأرياف، كانوا يتحدثون عن طريقةٍ لعلاجِ ابنتهم من مرضٍ أصابها. وامرأة عجوز ملامحها طيبة ترتدي رداءً أسود فاحرًا، جاءت وجلست في نهاية الضريح ومعها سلة من الخوص مُغطاة بقطعة قماش، كلما مرَّ شخصٌ من أمامها تُخرج من السلة كيسًا بلاستيكيًا به طعام تُعطيه له، قائلة: «رحمة ونور.. ادعي لابني ربنا يشفيه».

نهضتُ مندفعًا بجوع بطني ناحية السيدة، لكن فجأة هجم مجموعة من النساء والأطفال المتسولين عليها، وعندما وصلتُ لها، كانت تنفض كفيها وقد انفض الزحام والسلة خالية. تراجعْتُ وجلست مكاني أنظر لأمي التي جلست بجوار سور الضريح المعدني.

يبدو وجهها شديد الشحوب وهي تضع رأسها على قضبان الضريح، تكاد تفقد وعيها، تتشبث بالقضبان كي تمنع نفسها من الانهيار، يُصبح وجهها أحمر من جرّاء الصدمة، ترتعش شفتاها، لم أرَ أمي هكذا من قبل. هل ماتت وهي جالسة أم أنه الفزع؟

أنهض وأقرب منها، أسمعها تُردد هامسة «إنها كارثة، كارثة.. الفرج والنجاة يا رب»، طرحة رأسها تهدّلت، وشعرها مُتناثر ومختلط بدموعها. لكنها كانت جميلة. تبدو لي كالسيدة مريم في إحدى الصور التي رأيتها في بيت جارنا ماجد، وهي تنظر لابنها سيدنا عيسى المسيح.

غارقًا في دموعي، أنحني للأمام والتصق بها وأقول لها في صوتٍ محشرج «أمي، سامحيني، أتمنى أني كنتُ ابنًا طيبًا»، «لا تبكي يا حمامة.. كله مكتوب». تقول أمي، أدفن رأسي أكثر في حضنها. «لقد حاولتُ أن أساعدكم، لكنني فشلت، فشلت، أتمنى أن أموت».

نبكي نحن الاثنان.

كان لسان أمي وعيناها قد جفّا من كثرة الدعاء والبكاء، عندما بدأنا نخرج من غرفة الضريح الكبرى، على باب المسجد ونحن نتعل أحذيتنا، يجلس شيخٌ عجوز، ذو وجه باسم وذقن بيضاء وعيون عميقة تشعرك بالرهبة، «اسمع يا فتى، تعال، أريد أن أعطيك شيئًا». يُنادي الشيخ علي.

أذهب إليه أنا وأمي، تقول له أمي:

-«أحتاج إلى مساعدتك.. فنحن في أزمة كبيرة؟»

-المساعد هو الله.

تبكي أمي وتنفجر بكلماتٍ متلعثمة من شدة الخوف:

-أسرتي نضيع وبيتي خرب!

ابتسم الرجل، وقال لأمي لا أعرف لم أنت خائفة هكذا، فالله إذا أحبَّ عبدًا فیدخله في الاختبار، امتحانات جميلة، هذا ما نطلق عليه المحن والصعوبات والأزمات التي نواجهها في الحياة، امتحان جميل، لا داعي لأن تُسرعي نحو الإجابة لأن الإجابات كلها نسبية، فما يُناسب شخصًا ما قد لا يناسب الآخر، وبدل هذا الخوف والذعر اطلبي من الله أن يُجري الأمور لصالحك ولصالح أسرتك». ترأجت أُمي خطوة للخلف وهي تنظر للرجل، لكنها شعرت بأن كلامه مُريح وقد اطمأنت، وكأنها قد عادت أُمي التي أعرفها. أكمل الرجل:

- «ما يهم هو أن تكوني سعيدةً ومكتفية من الداخل، هل أنت كذلك؟»

كان يبدو على أُمي عدم فهم ما يقوله الرجل، لكنه نظر لي وقال:

- حماسة..

الدهشة شلت لساني وأنا وأمي.. كيف عرف اسمي، يكمل الشيخ:

- «إن موهبتك هذه ليست ملكك، بل هي إبداع الخالق، الله، نحن نشاهدك فنفرح بقدرة الخالق فينا، تلك الموهبة يجب أن يراها كل الناس، لأنها ليست ملكك، أنت مجرد وسيط، ويجب أن نحافظ على مواهب الله وننميها، لنزداد قربًا له».

أنظر لأُمي، ثم إلى الشيخ وقد قبض بيده على شيء ما، يُعطيني الشيخ العجوز قطعة نقدية فئة الجنيه، لكنها قديمة جدًّا، والصدأ على وجهيها، فلا يظهر شيء محدد فيها، أشعر بأن الشيخ يسخر مني، «أخبره بأنها قديمة».

يبتسم الشيخ، ويقول إنها هدية لك، لا تُفرط فيها، أشعر بأن الشيخ يعلم أنني أنا وأُمي ليس معنا نقود، وأنا منذ الصباح ندور في شوارع القاهرة بحثًا عن التوك التوك الضائع.

أخبره بأن معنا نقود، لكن الشيخ يعلم في قرارة نفسه أنني أكذب، يضع قطعة النقود في يدي، ويغلقها بقوة ويقول «إنها ليست للصرف، هي هدية ويجب أن تحتفظ بها».

أخذتُ القطعة النقدية ودسستها في جيبي وابتعدنا عن المسجد بينما الرجل يتابعنا بنظراته، أمامنا كوبري معدني وأسفله زحام شديد وسيارات مُحملة بالناس تأتي وتذهب من كل اتجاه، ونحن جائعان وتائهان ولا نعرف ماذا نفعل.

على مقربة منا عربة كبدة وسجق يزدحم عليها بعض الناس، تنظر لي أُمي وتُخبرني بأنها جائعة، أنظر لها وأخبرها: «وأنا أيضًا»، إن الكبدة والسجق شهية، تُذكرني أُمي بطبق الكبدة الذي كانت تصنعه وقد وضعت عليه الليمون والكمون، أشعر بأنها تقول هذا كي تُذكرني برائحة طعامها لأشعر بالشبع.

لم أكن قد ربطتُ رباط الحذاء الرياضي الذي ارتديته، هذا الحذاء الذي فزتُ به في الدورة الرمضانية الماضية، كأحسن لاعبٍ في منطقة الطالبة، كان ذا لونٍ أحمر وأصفر بشكلٍ مُميز، ولم أكن ارتديته إلا عند اللعب فقط، لكني لا أعرف السبب في ارتدائه عندما بدأت العمل على التوك توك.

فكرتُ أن أخلع الحذاء وأعرضه للبيع لأيِّ مارٍّ، فنحن نريد نقودًا للأكل ولنكمل رحلة البحث.  
وأنا أفق جائفًا وحائرًا تلك الحيرة، تقع عيناى على إعلانٍ كبير فوق إحدى العمارات البعيدة، الإعلان  
حجب قلعة «صلاح الدين» التي فى الخلف وحجب مساحة كبيرة من السماء وملاً عينيَّ وكأنه قد أنشئ لي،  
ولم أره إلا الآن، ابتسامة كبيرة لمحمد صلاح وهو يرتدي ملابس رياضية ويُمسك فى يده الحذاء الرياضى  
كإعلان، خشيتُ أن يرانى وأنا أفكر فى بيع الحذاء الذى ارتديه، تواريتُ وأعطيت الإعلان ظهري، لكننى  
وجدت نفس الإعلان بمساحة أصغر أمامى مباشرة فى الجهة المقابلة، وكأنه يقول لي لا تفعل ذلك.  
كنت غاضبًا بشدة، أقول لمحمد صلاح فى الإعلان، لم نتناول الطعام طيلة ساعات النهار.. منذ أمس نسير  
أنا وأمى فى أرجاء القاهرة بحثًا عن التوك توك الضائع.. لن تستطيع أن تفهم ما نمُرُ به.. فأنت تمتلك كل  
شيء.

وبينما نحن واقفان، تسقط علينا ورقة فئة مائتى جنيه من أعلى الكوبرى المعدنى الذى يمرُّ فوقنا، سقطت  
الورقة النقدية من شخصٍ ما، أو سقطت من السماء، لا أعرف! ورقدت على الأرض بين قدميَّ أنا وأمى،  
والناس حولنا يتحركون ولم يشاهدوا أحد، نظرتُ لى أمى مبتسمة، وانحنيتُ على الورقة النقدية وأمسكتها  
بيدى بقوة، وبيدى الأخرى ضغطتُ على القطعة المعدنية التى أعطها لى شيخ الضريح، وأنجَّهنا إلى عربة  
الكبدة والسجق التى وضع صاحبها على جانبها صورةً مُركَّبةً لمحمد صلاح وهو يُمسك سندوتش كبدة  
وقد كتب عليه: «بألف الهنا».

ابتسمنا وبدأنا نأكل ودموعنا تُغرق وجهينا.

## الفصل التاسع عشر

### بشائر

لا نعرف إلى أين نتجه..

نسير دون هواده ودون وجهةٍ في شوارع وميادين القاهرة. نطلُّ هنا وهناك لعلنا نجد أثرًا للتوك توك، لديّ إحساس بأنني أندفع إلى سقوطٍ رهيب، منحدر عظيم وأنا أهوي بقوة، فقط منتظرًا أن أسمع صوت ارتطامي بالقاع.

أشعر بأن حلمي يتلاشى كبخار ماء مُكثف على مرآة الحمام، أصبح ضدَّ التيار في بحرٍ مُتلاطم الأمواج، لكن هذا ليس بحرًا، إنه تسونامي ضخم يلتهم معه أسرتي كلها وليس أنا؛ تسونامي شاهدته في التلفزيون، أمواج هائلة تجتاح بلدانًا ومدنًا وتبتلع كل شيء، العمارات والأتوبيسات والسيارات والبيوت وكأنهم أوراق تُلقى.

شعرت بالشفقة نحو أمي؛ خلال تجوالنا ظلت أمي صامتة، يُمكنني أن أرى الكارثة في عيونها، في زاوية عينها أثرًا للدموع، لكنها لا تُريدني أن أراها، أُطلُّ في الاتجاه الآخر حتى لا أزيد من أحزانها. كنت أريد أن أموت فعلاً ولا أراها هكذا.

أفكر في أختي وأبي وجدتي والقط حمامة، ما حلَّ بهم الآن، أتخيل هجوم المعلم أبو أيمن ورجاله وطردهم من البيت وأخذ أختي وفاء بالقوة وجعلها زوجةً له، وربما جاءت الشرطة برفقة المعلم فولة وقبضت على الجميع، حتى أظهر أنا وأمي، لكنني أتحاشى تلك الأفكار، ربما تحدث المعجزة ونعثر على التوك توك، ونعود للبيت منتصرين، وأثبت للعالم أنني فعلاً رجل، رغم عدم تجاوزي الأربعة عشر عامًا.

ثلاث ساعات تقريبًا على جودنا في حي بولاق الدكرور المزدهم بالبشر والتكاتك، من شارعٍ لحارة لميدان، ولم نجد أي توك توك شبيهًا بالذي سُرق مني.

كان الليل قد هبط، والشوارع والمحال أصبحت شبة خالية، فالناس تتفرغ لمشاهدة المباراة الهامة للمنتخب اليوم. نسيتُ، وسط ما يحدث، هذه المباراة والتي سيكون نتيجتها وصول منتخبنا لكأس العالم.

استقبلتنا حديقة مُهملة تطلُّ على ميدانٍ متسع، قرّرنا الاختباء بها، لكن الحديقة كل شيءٍ فيها قبيح. وبدا أنه ليس هناك أحد فيها سوى فضلات الكلاب وأعقاب السجائر ومناديل ورقية وورق صحف. حتى دُكَّ الجلوس وُضع عليها زيت وشحوم سيارات مُستعملة لمنع جلوس أحد عليها. جعلني ذلك مكتئبًا.

رغم كل القاذورات، استطعنا تنظيف مكانٍ بالقرب من جذع إحدى الأشجار وجلسنا. قالت أمي: «يبدو أننا سنقضي الليلة هنا.. فليس أمامنا خيار آخر.. إنه مكان آمن». لم أزد عليها ولم أستطع النظر في عينها. فصمتُ.

لم نستطع الجلوس في الحديقة لعدة دقائق بسبب رائحة بول ومُخلفات الكلاب، وقرّرنا الهرب لنجلس على الرصيف المقابل لها، في الجهة الأخرى من الميدان، مقهى كبير تحت بناية شاهقة، بدأ الاستعداد لاستقبال جمهور المباراة بوضعه عدة شاشات كبيرة ورصّ كثير من المقاعد.

أثناء جلوسنا على الرصيف كان يمكن لنا أن نُتابع البشر والتكاتك التي تنطلق وتهول بسرعة للحاق بالمباراة ولا تشعر بما نمُرُّ به، أوزّع نظراتي على جميع الاتجاهات في أرجاء الميدان المُتسع، وأتحاشى النظر إلى عين أمي.

جلست أمي بجواري بعيونٍ شاردة، تحبس الدموع خلف سدٍّ من الأفكار العاجزة، أمي التي تُفوق قوّة الكثيرات من النساء على هذه الأرض، ودائمًا تُثبت أنها شجاعة وقوية وطيبة مثل بطلات الحكايات الخرافية اللاتي يفزْنَ — دائمًا — في النهاية، تحوّلت إلى عجوز، بمَ تفكر؟ وكيف ستخرج من الكارثة؟!

كانت عيننا أمي قد غفّتا وراحتنا في سباتٍ عميقٍ من كثرة التعب والجوع. والمقهى في الجهة الأخرى قد امتلأ على آخره، فالجمهور جاء سريعًا لمتابعة المباراة، روّاد يجلسون على المقاعد وآخرون يقفون، وبدأت السيارات والتكاتك تتجمّع وتتراصّ لمتابعة المباراة. ومذيع التلفزيون يُعلن عن أهمية المباراة وأنها مصيرية. فجأة ونحن جالسان نُفبق على يد رجلٍ تمتدُّ وفي نهايتها عشرون جنيها: «امسكي». يقول الرجل.

ترفع أمي رأسها في تعبٍ وحيرةٍ وتنظر للرجل، ثم تنظر لي، أقول بعيون باكية: «نحن لسنا متسوّلين». بيتسم الرجل، ويُلقني بالعشرين جنيهاً في حجر أمي ويجري مُسرّعاً ناحية المقهى الذي انفجر عندما أحرز «محمد صلاح» هدفاً، واشتعل الميدان بالدخان والشماريخ والصياح والتصفيق الحادّ والهتاف الصارخ والإعلام، والمذيع يصرخ أن الهدف الذي أحرزه صلاح هدف تاريخي.

كنت أريد أن أففز وأشارك الجمهور فرحته بالهدف، لكنني خشيتُ من حزن أمي. تذكرتُ أننا جائعان، ومعدّاتنا تُكرب وتصرخ من شدة الجوع، نهضتُ وقلتُ لأمي: «سوف أذهب لشراء شيءٍ نأكله بالعشرين جنيهاً». تركتني أسير ولم تُرد أو تنظر ناحيتي.

عبرتُ الميدان، ووقفت أنظر لإحدى الشاشات الكبيرة لمتابعة المباراة، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أدخل بقوة وسط الزحام الرهيب لأجد مكاناً لمتابعة المباراة.

المباراة مشتعلة، وقد اقترب وقتها على النهاية، والفريق المنافس يشنُّ هجماتٍ متتالية على مرمى مصر، وصلاح يصرخ في اللاعبين ويُشير لهم بأن يتقدّموا للهجوم.

كان صلاح متألقاً رغم المتابعة الدقيقة له من أحد المدافعين للفريق المنافس، وفجأة سقط على الأرض نتيجة عرقلةٍ شديدة من الخلف وبدأ يتألّم بشدة. هبط المُسعفون سريعاً لعلاجه. وتجمّع عدد من اللاعبين للاطمئنان عليه.

كنت أنظر لصلاح وأشعر بألمه، عندما جاءت عينا في عينيه، شعرتُ أنه يبادلني النظرات ويتسم لي، كانت ابتسامته مطمئنة وشعرتُ بأنه يقوم بتحيّتي ويُخبرني بأن الانتصار قد اقترب.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ مع الجمهور لحثه على النهوض سريعاً، لكنني تذكرتُ أمي والكارثة التي نحن فيها، تراجعتُ وانسلتُ بصعوبةٍ وقوة من بين الزحام الشديد وأنا أبكي.

وقفتُ وقد أعطيتُ الشاشة ظهري، أخشى من نظرات صلاح لي، بدأ إحساس بالهزيمة يملأ قلبي، مهزوماً أقف وحيداً، المهزوم لا أحد يُشجعه، ولا أحد ينظر له، فقط كلمات مواساة حتى تُطَيَّب خاطرهُ، الفائز هو من يتذكَّره التاريخ. لم أشعر بالسعادة مع الجماهير بل شعرتُ بانقباضٍ وضيق، تمنيتُ لو مُت، لكن عينيَّ تحجرت فجأة حين لمحتُ مفتاحاً في توك توك نسيه صاحبه، ثبتُّ نظراتي عليه، شعرت حينها بأن هذه هي فرصتي وطوق نجاتي.

أتلَّفتُ حولي، الجميع مُصوَّب نظراته ناحية المباراة، الجميع مشغول في تشجيع المنتخب، يلمع المفتاح في عيني، بضغطة بسيطة أسترُدُّ حقي، وأنقذُ أسرتي، قلتُ لنفسي: «هذه هي فرصتك الكبرى. جائزتكَ التي ستجعلك تعود منتصراً. وتنقذُ أسرتكَ».

أنتدَّم خطوةً خطوةً وكأنني أُصوب ضربة جزاء حاسمة، ضربات قلبي ترتفع بقوة، والخوف يتكاثر في قدمي، يُثقلهما، أشعر بعدم القدرة على الحركة، ويُصبح ظهري بارداً، ومُمتلئاً بحبَّات العرق.

لكنني أتوقَّف، أتذكَّر ما عانيناه، ولا أريد أن يشعر بهذا الجحيم أحدٌ مثلنا، أراجع عن هذه الفكرة خوفاً على أمي وإخوتي، أضع يدي في جيبِي، أمسك قطعة النقود التي أعطاها لي شيخ المسجد وأضغط عليها بقوة. أنسحب عائداً للخلف، أُصدِّم بشخص، أستدير لأراه، أجدُ أمي تقف خلفي تماماً، يبدو أنها قرأت ما جال بخاطري، احتضنتني بقوة، واحتضنتها بشدة، حينها تنطلق صفارة انتهاء المباراة ويصرخ المذيع معلناً فوز مصر ووصولها لكأس العالم وينفجر كلُّ شيء حولي.

انفجار، صياح وتشجيع الجماهير بانتهاء المباراة لا يمكن وصفه، فقد التفتُّ حولي مجموعة كبيرة من جماهير المقهى، التي كانت تشاهد المباراة، وجماهير جاءت وتدفقت صوب الميدان من شوارع أخرى، وكأنهم كانوا محبوسين في صناديق وخرجوا منها فجأة، الجميع يحتفل، ويصرخ، ويُطلقون الشاريخ والأعيرة النارية، نشوة عظيمة للفوز، وأصبحتُ أنا وأمِّي كأننا قطرتان من ماءٍ في موجات متتابعة من البشر، وسط صياحهم وهتافهم، وأمِّي تحتضني بقوة كي لا نفرق ونبكي بينما الجماهير تصرخ وتتقاذف على المقاعد ويحتضن بعضهم بعضاً من فرط السعادة.

كل شيءٍ اكتسب جو السعادة والفوز. كثيرٌ من البشر، أُسر وشباب وأطفال ونساء كانوا في الشارع في لحظة. والجميع يحتضنون بعضهم بالفوز الكبير للمنتخب، وهم يصيحون باسم «مصر» وباسم «صلاح». احتضنتُ أمي بقوة حتى كدنا نفقد الوعي من كثرة الزحام والهتاف والدخان والسعادة.

## الفصل العشرون

### المعجزة

في استعادتي للحادثة، ربما كان يجب أن آخذ حذري بشدة، وألاً أقوم بمساعدة السيدة العجوز التي حملتُ عنها حقائبها الكثيرة وهي عائدة من السوق، ما كان يجب أن أترك التوك توك بمفرده، رغم دعاء السيدة لي بالنجاح، لم أكن أستطيع ألا أن أساعدها.

هناك من يقول إنني جنيتُ على نفسي وجلبتُ لأسرتي الكارثة، من خلال عملي على توك توك وأنا لا أفهم شيئاً في قوانينه. فلم يكن العمل على التوك توك مباراةً يجب أن أفوز فيها وأحرز الأهداف، بل هو مهارة وسلوك لم أكن مهيناً له.

على كل حال، لقد كانت محاولةً مني لإنقاذ أسرتي، خاصة أختي وفاء، والتي يجب الآن أن نُقدمها كهدية للمعلم أبو أيمن وكزوجةٍ له لم تتعدَّ السبعة عشر عاماً. وهو طوق الإنقاذ الذي تُفكر فيه أُمي الآن. لم نعد نستطيع أن نمضي أكثر من ذلك بحثاً عن التوك توك.. كما قال «سيد أبايا»: تبخّر. «الآن يمكننا أن نذهب إلى البيت وليحدث ما يحدث» قالت أُمي ذلك دون النظر لي.

المظهر القذر الذي نحن فيه واليأس الذي استندنا عليه أثناء عودتنا للبيت كان قاسياً، لقد تبدّلت أُمي تماماً، ووضعت مكانها امرأةً ثقيلة الجسد، رأسها مُطأطئ، ووجهها غائم، ظللتُ أنا وهي صامتتين طوال الطريق، ملبسنا مُتسخة ورائحة العرق تُغرِقنا، والدموع الجافّة على وجوهنا، والجوع يُكربك ويُمزق أحشاءنا.

عُدنا إلى البيت سيراً على الأقدام من بولاق الدكرور للطالبية. على امتداد أكثر من خمس عشرة محطة أتوبيس. لم نفعل ذلك رغبةً في المشي، بل بسبب الخوف الذي شعرنا به ينتظرنا كلّمًا اقتربنا ناحية البيت، وخلال الطريق كُنّا نُقدّم قدمًا ونؤخّر قدمًا، وكأننا أمام ضربة جزاءٍ مصيرية وحاسمة، والمرمى لا يقف فيه حارس بل سدُّ بالأحجار.

الحارة خالية تماماً، وإن كان يفوح منها رائحة تشجيع الجماهير، ذهب الجميع لشارع خاتم المرسلين المُتسع للاحتفال بفوز المنتخب. ومن خلال الهدوء والظلام والإضاءات الهزيلة، تسللتُ أنا وأُمي إلى فوهة بيتنا فلم ينتبه لعودتنا أحد.

منذُ عودتنا للبيت لم يتحدّث أحد، الهزيمة الثقيلة أفقدتنا قُدرتنا على الكلام، فغرِقنا جميعنا في الصمت، فقط الوحيدة التي كانت تتحدّث جدّتي، تدعو الله بأن يخرجنا من تلك المصيبة. لكن على وجهها ابتسامة جميلة، تقول: «رحمة ربنا كبيرة.. كله مكتوب»

على حين غرة، أسمع وقع جلبة في الحارة وصرير عدة سيارات تقف بقوة، وصوت بعض الرجال يأتي حادًا، تبادُلنا النظرات أنا وأُمي، ونحن نتوقّع قدوم أبو أيمن والمعلم فولة ومعهما الشرطة.

الأصوات ترتفع وتقترب خارج الشقة، يهتز باب شقتنا وينفتح في قوة، ويندفع مجموعة من رجال الشرطة وهم يبحثون عني.

لم أكن أستطيع الهرب أو الدفاع عن نفسي، كنتُ محطماً، دخل أمين شرطة وثلاثة مُحبرين وخلفهم ضابط، أحاطوني، ولم يكن أحد يفهم ما يحدث.

قال الأمين: «هل هذا هو الفتى الذي نبحت عنه».

أكد الضابط بأنه هو، فجأة، كفُّ المُخبر تهبط على خدي، تصفعني بقوة لم أكن أتوقَّعها، أسقط على الأرض، لكنني لا أبكي، أنظر إليه، أريد أن أقفز وأنقضَّ عليه، لكنه يسبُّني ويشتمني.

يقول الضابط: «أين الحقيبة التي سرقتها.. وأين الهاتف والأوراق».

الذهول على وجوه الجميع، تخرج الكلمات من فمي دون إرادتي: «هاتف.. أي هاتف»، تصيح أُمي وهي تجذبني من يد المُخبر القابض على ذراعي: «لم نسرق شيئاً.. لم نسرق أحد».

بعد لحظاتٍ يدخل رجلٌ في الخمسين من عمره، ملامحه تدلُّ أنه ليس مصرياً، وجهه أبيض وشعره أصفر طويل شبيهٌ بشعر امرأة، أو نجم غناء، يرتدي بذلةً من الكتَّان غاية في الأناقة وحذاءً جلدياً لامعاً، ويفوح منه عطر ترك أثراً في جميع الأركان. من المؤكد أنه عطرٌ أصلي لم أشمُّه من قبل سواء من الركاب الذين يركبون معي أو في الحارة أو الحي الذي أعيش فيه، كنتُ أعتقد أنه أحد الركاب وقد نسي شيئاً في التوك توك ذات يوم، ربما تكون مُصيبة جديدة جاءت على دماغي ودماغ أسرتي.

ابتسم الرجل وهو ينظر لي وقال بلهجة إنجليزية: yes.

يُحاول أمين الشرطة جذبني من يد أُمي ومعاودة صفعي، إلا أن الرجل الغريب يُشير له بأن يتوقَّف، قائلاً بلهجته الإنجليزية: «NO».

يتحدَّث الرجل الغريب، بهدوءٍ شديد وابتسامةٍ لا تفارق وجهه. جعلت الجميع صامتين، وينظرون له في دهشة.

اقترب الرجل مني وانحنى ناحيتي ووضع يديه على كتفي، عيونُه لامعة وحادة وكأنه عثر على كنز. يُقدمني الرجل الأبيض كما يُقدم مذيع بالتلفزيون أحد الشخصيات الهامة. «أيها السادة.. هذا هو الفتى المنشود».

الرجل الأبيض يمسح جبينه بمنديل ورقي، وينظر إليّ كما لو كنتُ نجماً عالمياً أو مطرباً مشهوراً، يُريح الرجل نفسه على الكنبه بجوار جدتي، له عيان عميقتا الزُرقة وأنف وردي. يُحاطبني كاشفاً عن أسنانه البيضاء النظيفة قائلاً: «مرحباً. اسمي «جونسون فايتسا». أنا أمثل أكثر من نادٍ أوروبي. وأنا مُكتشف المواهب وسمسار كروي». «أنت الفتى الذي كنتُ أبحث عنه منذ مدةٍ طويلة».

يُخرج الرجل من جيبه هاتفه الخلوي، ويقوم بفتحه ويبدأ في عرض أحد الأفلام والتي اتضح أنها مباراة أمام فريق حي عابدين، تلك المباراة التي كنتُ مُتألماً فيها، لأنها آخر مباراة ألعبها مع فريقي، إنها تلك المباراة

التي فزنا فيها على فريقين عنيين، أحببت مشاهدة نفسي وأنا أعب.

ويكمل الرجل الأبيض: «وعندما وضعت ذلك الفيديو الذي لم يتجاوز دقائق على موقعي الإلكتروني.. انهالت عروض من عدة أندية أوروبية لاستشارك وشراك، لكنني للأسف لم أكن أعرف أين تسكن، وكنت أبحث عنك، لذا اخترعت فكرة ضياع الهاتف وحافطة النقود والأوراق، حتى تهتم الشرطة بالأمر.. والسفارة أيضًا».

أنظر له وأبقى صامتًا، لا أعرف أي كلمة يمكن أن تخرج من فمي للتعبير أو التعليق عما يحدث، ربما يكون الزمن قد توقف حينها، أمي تنظر لي وجدتي تنظر لسقف الغرفة بينما شفتاها تتحرك وعيونها تنهمر منها الدموع، لكنها ليست دموع الحزن أو البكاء، إنها دموع الفرح، كان يجب أن أميز تلك الدموع وأن أجمعها في كوب أو إناء حتى لا يضيع طعمها من حياتنا.

يتحدث الضابط للرجل: «لقد قلت إن هذا الفتى قد سرق منك أوراقًا هامة وحافطة نقودك وهاتفك».

«أجل قلت ذلك كي تهتم الشرطة بالأمر.. لو أخبرتكم بنواياي لن تهتم الشرطة، وربما تعرضت لمضايقات وعقبات كنت في غنى عنها، أن وقتي ثمين جدًا يا حضرة الضابط».

يُكمل الرجل وجدتي تُربت على ركبته، فيبتسم لها: «للأسف أن هذا الفيديو لم أقم بتصويره، بل زوجتي التي كانت في زيارة لمصر، وأثناء زيارتها لقصر عابدين الملكي، شاهدت المباراة، وقامت بتصوير هذا الفيديو، وسُرعان ما أرسلته لي، فلم أكن أعرف عنك شيئًا إلا هذا الفيديو، كنت بالنسبة لي شخصًا مجهولًا يجب العثور عليه. لذا جئت إلى مصر قبل أن تضيع».

عاود الرجل النظر لي: «أنت كالفاكهة الثمينة، لكنك تحتاج إلى مزيد من القوت كي تنضج.. لو تُركت هنا سوف تفسد أو يُصيبك العطب.. فالأحلام أيضًا تُصاب بالشيخوخة والعطب يا بُني.. لقد اقترب وقت مُغادرتي مصر.. وقد جهزت كل شيء لك.. سوف تلتحق بأكاديمية للتعليم والتدريب خارج مصر.. وهذه هي بطاقتي».

تلتقط أختي وفاء البطاقة، كارت صغير مُدون بها اسمه وعليه بعض الأرقام والإيميل وطُرق التواصل معه باللغة الإنجليزية.

لكن الرجل ضحك وهو يُغلق هاتفه، ونظر لي وقال إنني أريد والدك للتعاقد معه على شرائك.

نظرة عدم التصديق على وجه الجميع، تُخبرني بكل شيء.

قال الضابط معترضًا: «سيدي يُوجد هنا مثله الكثيرون.. فالجميع ماهرون في لعب الكرة»

اعترض الرجل بشدة وقال «هذا الفتى لديه أسلوب، إنه... توقف ليُفكر بعض الوقت.. ثم أكمل «قطعة سحاب حرة في سماء الملعب، يُضيء بحركاته كشجرة عيد الميلاد، أي شخص يستطيع أن يُحرز الأهداف.. هذا الولد يفعل أكثر من هذا.. يعزفها بقدمه.. إننا أمام معجزة رياضية بكل المقاييس.. قدراته خرافية وغير محدودة.. إن أقدامه بعشرة أقدام. تذكرت أن أمي تمتلك يدين بعشرة أصابع ولكنها عشرة جيوش».

ينظر لي الرجل الغريب بعيونٍ مُتسعة ويكمل: «إن موهبته غالية، وإذا تدرَّب في نادٍ خارج مصر، سيُصبح سعره أغلى فأغلى، سيُصبح ثريًّا في ظرف عدة سنوات، ويختصر كثيرًا من سنوات الكفاح، إنه يملك طاقةً ضخمة لعدة لاعبين في الملعب، وإنه لم يرَ لاعبًا يفوق موهبته في هذا السنِّ طوال حياته العملية التي تمتدُّ لعشرين عامًا في اكتشاف المواهب.. يكفي أن الكرة تُحبه، وتعشقه، وهذا أمر نادر».

كان يبدو أن الضابط غير مُقتنع بكلام الرجل الغريب، ضحك ساخرًا وقال: «لا يُوجد في منطقة الطليحة أو مدينة الزهور إلا المُجرمون».

تذكرت حديث مُدرس اللغة العربية؛ إنه لم يخرج من مدينة الزهور زهرة واحدة.

هز الرجل الغريب رأسه مؤيدًا كلمات الضابط، لكنه عاد ليقول: «ربما كلامك صحيح.. لكن الكرة لا تعرف ذلك»، يحكُّ الرجل رأسه، «ثمة فتیان ينحدرون من خلفياتٍ فقيرة لكنهم وُلدوا عباقرة في الكرة.. ألم يكن بيليه من أفقر أحياء البرازيل.. مارادونا من حواري برنيس آيس».. يُعاود النظر لي ويتحدث: «أنت ليس محظوظًا في اللعب.. أنت لديك موهبة حقيقية، الكرة تُحبك كما نقول، وهبك الله تلك الهبة.. يجب أن تستثمرها، لأنها ليست ملكك، بل ملك الجميع».

عيناى لا تستوعبان ما أراه، وأذني لا تحتمل ما تسمع، أتذكر كلمات شيخ الجامع عن موهبتي، أضغطُ يديَّ بقوة في جيبي وأمسك القطعة النقدية.

أراح الرجل ظهره للخلف ويُفكر للحظات، بينما الجميع ينظر له في صمتٍ شديد، ثم قال: «لكن الآن يُوجد مشكلة، يُخرج هاتفه ويقوم بفتح الفيديو مرة أخرى، «انظروا.. شاهدوا كيف أخذ ثلاثة لاعبين لزاوية الملعب، يبدو أنه يُحاول أن يتخلَّص منهم، لكن الحقيقة أنه هو من استدرجهم لهذا الركن، شاهدوا كيف ظلَّ واقفًا يتحرك بجسده وكأنه أفعى حقيقية يَميل بجسده العلوي وكأنه سوف يلدغ لدغته ثم يتراجع.. لقد جعل الثلاثة لاعبين يقفون أمامه في حالة ثباتٍ وحدَرٍ شديدين.. وفي النهاية لم يلدغ أحدًا، بل مر بينهما بثلاثِ خطوات، كما تنزلق أفعى من جُحرها.. إنه يعرف كيف يتحرك في الفراغ الذي حوله.. يستفيد منه.. في المنطقة العمياء كما نقول نحن خبراء الكرة».

يُغلق الرجل هاتفه، ثم يُخرج من جيبه سيجارًا غليظًا، كما أشاهده في فيلم سينمائي، يُشعله ويُغرق الغرفة برائحته الحادة والنفاذة مع رائحة عطره: «إنني في حيرة؛ ما الاسم الذي أضعه على الإعلان لتسويقه في موقعنا لاكتشاف المواهب.. هل أضع اسم الأفعى أم البيانو الصغير».

عاد بظهره للخلف بقوة وهو ينفخ الدخان في سماء الغرفة واضعًا ساقًا على ساق: «إنه في لعبة الكرة يكاد يقتل نفسه. وذلك شيءٌ وحشيٌّ ونادرٌ.. كأنه جزءٌ من الطبيعة عندما تتصرَّف بشيءٍ من اللامعقول. لتُثبت أنها سيدة هذا الكون وليس الإنسان؛ الجسد العقل الروح، يعزفون في شيءٍ واحد هو هذا الفتى.. هذا هو تميُّزه الحقيقي. يملك أكثر من عقل في قدميه، عليَّ أن أعترف بذلك. استمتعتُ كثيرًا بهذا».

كنتُ مندهشًا من هذا الكلام عني، وكأنه عن شخصٍ آخر لا أعرفه.

يُكمل الرجل وهو يبحث عن مِطفأة للسيجار فلا يجد: «إن لَعِبَهُ أشبهَ بعزفٍ على البيانو. عندما يتحرك في الملعب فهو عازفٌ حقيقيٌّ.. جسده كالكمّان، هو موسيقار عظيم يُحسِن العزف بقدميه، كما أن سحري كان يتجول في المكان، كلاً، كلاً ليس كما أنا، بل بيانو صغيراً متكاملًا».. «إنه يلعب وكأنه يعزف موسيقى، يعزف بقدميه وكأنه يضرب على آلة بيانو، كل خطوة لها صوتٌ وكل لمسة لها صوتٌ وكل ضربة كرة لها صوت، هذا شيءٌ نادرٌ أن يحدث في أرض الملعب، الجميع يلعب الكرة، والجميع يعزف، لكن قِلَّة قليلة ونادرة من يستطيع أن يجعل من لعبة الكرة سيمفونية مكتملة، يجعل لكل مباراةٍ لحناً خاصاً بها، هو لا يريد اللعب فقط أو إحراز الأهداف، هو يريد أن تظلَّ كل لعبة عالقةً بذهن الجمهور، إنه يعشق حركاته، وهذا أمر نادر. نادر حقاً».

رغم عدم استيعابي للكثير مما يقوله، إلا أنني تذكرتُ فتاة العلامات وما أخبرتني به، أضغط بيدي على القطعة المعدنية في جيبي التي أعطها لي الشيخ مرة أخرى، بينما نظرة عدم التصديق على وجه الجميع.. تُخبرني بكل شيء.

في حيرةٍ كبيرٍ يُلقي الرجل بسيجاره من النافذة، بعد عجزه عن العثور على مِطفأة، يقول: «إذا كان للبيانو 88 أصبغاً أبيض وأسود وهم مُتشابهون.. لكن كل أصبغٍ بلحنٍ مختلفٍ.. هذا الفتى كالبيانو.. كل لمسة وكل لعبة بلحنٍ وأسلوبٍ مختلفٍ».

وكانَّ الزمن قد توقف في الغرفة، وأصبح جوُّها حاراً وكأنها براد شاي يَغلي، لم يكن بها أي صوت إلا أنفاس تهْدُر فقط، الشيء الوحيد الذي صدر من الغرفة هو صرير المروحة في السقف، فجأة يُعدل الرجل الغريب من جلسته قائلاً: «البيانو الصغير.. هذا هو اللقب الذي اخترته لك.. سوف يكون اسماً عالمياً لك.. هذا هو عملي وأنا ماهر فيه».

ينهض الرجل الغريب من جوار جدتي ويفرد ذراعَيْه لي قائلاً: «مرحباً بك أيها البيانو الصغير في عالم كرة القدم الحقيقي». ويكمل الرجل وسط صمتنا وذهولنا: «والآن ليس لديّ الوقت الكافي. يجب إنهاء أشياء كثيرة ويجب أن أحصل على موافقتكم الآن»، ثم يضع يديه داخل جاكته بذلته ويُخرج ورقة صغيرة ويقول: «وهذا شيكٌ مُقدماً وذلك عنواني بالفندق».

وكانه ساحر يُقدم فقرته الاستعراضية. توقف الزمن في بيتنا. الجميع ينظر له وكأنه مُنوم مغناطيسي يتحدث.

عيناى تُشرقان بالفرحة. أرى السعادة الطاغية والحقيقية على جميع الوجوه. سعادة لم نرها منذ فترةٍ طويلة. سعادة حقيقية تقول إننا انتصرنا واستطعنا الصمود أمام طوفان المشاكل التي أحاطت بنا. وأمي بدت غير مسيطرة على أصابعها التي كانت ترتعش.

أندفع إلى حُضن أمي، تأخذني بين ذراعَيْها، إنني في قمة السعادة، أُحلق في السماء كفرد حمامٍ خرج من قفصه وانطلقَ يجوب السماء ويُرفرف ولا يريد أن يلمس الأرض مرةً أخرى.

الجميع يخبطونني على ظهري ويهتئونني، أني في ذروة السعادة، أحتضن أبي الراقد، تصرخ أختي نورهان ووفاء تزغرد بقوة، بينما جدتي المبتسمة تمتلئ عيونها بالدموع وتُخبرهما بأن يكفَّا حتى لا يحسدنا أحد، أو يأتي صقر ويخطف تلك الفرحة، أتجه إلى جدتي وأنا ممسك بالشيك الذي قدّمه الرجل، تأخذني في حضنها، حينها فقط شعرتُ بأنني رجل.

لقد كادت رءوسنا تُصدّم بسقف الغرفة من هول ما يحدث ونُسمع، جميعنا نقفز من السعادة، لقد حدثت المعجزة، أكاد أشعر بضربات قلب كل من أمي وأبي وجدتي وأختي، وكلُّ منهن اكتفى بطريقته للتعبير، فجدتي سجدت على الأرض شكرًا لله، وأختاي تقفزان وهنَّ تحتضنان بعضهما، والقطة حمامة يتقافز بين الكنبه وحافة النافذة، بينما أمي، أطلقت زغرودةً من فمها، وأبي ظلَّ يبكي بقوة، بينما أنا لا أتذكر شيئًا مما حدث بعد ذلك لأنني فقدت الوعي، من جرّاء الألم والجوع والسعادة.